مجريا إسمه أوربان ، وكان ذلك الرجل قد عرض خدماته قبلا على الأمبراطور البيزنطى ، فلم يمنحه المكافأة التى كان ينتظرها ، فأسرع إلى الأتراك يعرض عليهم اختراعه . ما كان البيزنطيون يستطيعون الإستفادة من اختراع ذلك الرجل ، فحالة أسوار مدينتهم ما كانت تسمح بوضع مدفع كبير عليها . على أى حال استقبل محمد الثانى ذلك الرجل استقبالا حسنا ، وأغدق عليه الأموال والخيرات وكل مايصبو إليه من شرف ، وعرف السلطان كيف يستغله أكبر استغلال ، وسهل له كل الوسائل لاتمام مخترعه . واستخدم السلطان المدفعية فى ذلك الوقت على نطاق لم تعرفه من قبل .

* * *

حصار القسطنطينية (١)

وفى أوائل إبريل ، فى اليوم الخامس منه ، ظهر الجيش العثمانى أمام أسوار مدينة القسطنطينية ، بين دعاء العلماء والأشراف من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . ظهر الجيش العثمانى منظما تنظيما

(١) يخالف المؤلف شلومبرجر صاحب كتاب فتح القسطنطينية فى فكرته عن قسوة السلطان وعدم إرتباطه بالوعود .
ولقد أخطأ شلومبرجر فى أسماء القواد العثمانيين الذين اشتركوا فى الحرب .

رائعا على نسق منقطع النظير فى ذلك الوقت . وبدت الفرق بجانب الفرق فى أعلامها وطبولها وأبواقها وموسيقاها وخيلها ومدافعها المكونة من أربع عشرة بطارية ، اثنين وستين مدفعا وكاول الحمل الكثيرة العدد .

ونصب السلطان سرادقه محاطاً بالخنادق على الشاطىء الأيسر لوادى ليكوس أمام الباب المشهور بباب القديس رومانوس . وسلطت على ذلك الباب المدافع القوية البعيدة المدى . ثم اتجه السلطان نحو القبلة ، وصلى ركعتين ، وصلى الجيش كله ، وبدأ الحصار الفعلى .

وانطلق العلماء وأهل الدين إلى الفرق العسكرية المختلفة يحثونها على القتال ، واحتل العثمانيون الخط الممتد من بحر مرمره إلى القرن الذهبى محيطين بأسوار المدينة ، ولم يهتم السلطان بإعداد جنوده وتموينهم بالأسلحة والمدافع العظيمة والغذاء فحسب ، بل اهتم اهتماماً زائداً بتنسيق عمل القوات ، ووضع الخطط المنظمة التى يتعاون فيها الفرسان مع المشاة مع المدفعية فى الحصار والهجوم .

ولقد وضع السلطان محمد الثانى الفرق الأناضولية ، وهى أكثر الفرق عدداً بحيث تعسكر عن يمينه إلى بحر مرمره . وإلى شمال هذه الفرق وعن يساره عسكرت الفرق الأوروبية إلى القرن الذهبى . والتف

الحرس السلطانى المكون من نخبة الجنود وهم الانكشارية ، خمسة عشر ألفاً حول السلطان فى الوسط ، وكان عليهم تعضيد الهجوم فى جهة باب القديس رومانوس ، وهى أضعف نقطة فى الدفاع .

وشاهد سكان القسطنطينية ذلك المنظر المخيف من أعلى أسوار مدينتهم . وفى الوقت نفسه جمع السلطان أسطولا عظيما هو أول أسطول تركى بالمعنى الصحيح فى مدينة جاليبولى وهى قاعدة العثمانيين البحرية فى ذلك الوقت ، وأمر السلطان ذلك الأسطول فعبر بحر مرمرة إلى البوسفور حيث ألقى مراسيه هناك ، حيث انضمت إليه بعض السفن العثمانية من البحر الأسود ، فأضاف منظره إلى منظر الجيوش المحاصرة روعه على روعه ، وقوة على قوة ، وعمل على زيادة الذعر فى المدينة المحاصرة.

واقترب العثمانيون من الأسوار ، وعندئذ طلب السلطان من الامبراطور أن يسلم المدينة للأتراك ويتعهد السلطان بأن يحترم حياة سكانها وممتلكاتها ، وطلب محمد من قسطنطين ذلك الطلب حقناً للدماء ورحمة بالسكان ، ولكن الامبراطور قسطنطين رفض ذلك الطلب رفضاً باتاً ، فلم يكن للسلطان مفر من الحرب .

درس السلطان محمد الثانى حالة الأسوار وقوتها من القرن الذهبى إلى بحر مرمره بنفسه لكى يكشف عن النقط الضعيفة ، ثم استعرض

جنوده وقوى من روحهم المعنوى ووعدهم بالنصر ، ثم قسم القيادة فجعل زغنوس باشا وأصله ألبانى على رأس الجيش غير النظامى الذى يعسكر على أعالى بيره ، وعليه مراقبة سكان غلطة الجنويين وعليه أن يمنعهم بالقوة إذا استلزم الأمر من مد يد المساعدة إلى المدينة المحاصرة .

وجعل صاريجه باشا على الميسرة وهو بايلربای (حاكم) روملى وواجبه الهجوم على المدينة من أعالى القرن الذهبى ، وجعل الإشراف على المدفعية العثمانية وجعل على جنوده الأسيويين أو الأناضولية اسحق باشا بايلربای الأناضول هو ومحمود باشا وكل منهما عظيم الامتياز كبير التجربة فى أمور الحرب ، وجعل السلطان لنفسه هو وخليل باشا قيادة الوسط وكانت المدفعية العثمانية فى ذلك الوقت أكبر مدفعية عرفها العالم .

وجعل السلطان مهمة الأسطول تنحصر فى منع وصول التموين الغذائى والحربى عن طريق البحر إلى المدينة ، ومهاجمة السفن المسيحية التى تحرس السلسلة التى تغلق القرن الذهبى ، ومحاولة اقتحام القرن الذهبى والقضاء على السفن الراسية فيه ، والتعاون مع الجيش البرى فى حصار مدينة القسطنطينية . كان ذلك الأسطول مكوناً من حوالى ثلاثمائة سفينة هى بطبيعة الحال أصغر بكثير وأقل قوة من سفن أعدائه وإن كانت أكثر منها عدداً .

لقد هوجمت القسطنطينية من كل ناحية ماعدا ناحية القرن الذهبي فلقد كانت محمية بالسلسلة وبالأسطول الراسى فى الميناء .

كانت أسوار القسطنطينية بالرغم من الخراب الذى لحق بعض أجزائها منيعة ، استطاعت أن تدفع عنها الأعداء فى كل العصور ، فهذا السور العظيم الممتد من القرن الذهبي إلى بحر مرمره من عجائب الدنيا حقيقة فى ذلك الوقت ، تعاهده الأباطرة فى مختلف العصور بالإصلاح والترميم أمام مرور الزمن وجحافل الأعداء العديدين . وهو لا يزال إلى الآن مظهراً من مظاهر عظمة هذه المدينة الخالدة بأبراجه ومرتفعاته ومنخفضاته التى تنحنى حسب الأودية والتلال مستندة إلى سماء زرقاء صافية ، وفى كل زاوية من ذلك السور العظيم يقوم حصن قوى ، ولكن ذلك السور كان فى حالة سيئة نوعا ، ويحتاج إلى إصلاح وترميم فى الوقت الذى حوصرت فيه هذه المدينة . وكما تقول المصادر الافرنجية المعاصرة لم يقم المهندسان اللذان كلفا بالاصلاح والتعمير بمهمتهما كما تقضى النزاهة والواجب ، وأما السور الداخلى فظل على حالته من الخراب لم يرمم الترميم الكافى . لقد اعتمد سكان المدينة كله على السور الخارجى بحصونه وأبراجه القوية .

وأمام الجيش العثمانى العظيم ومدفعيته الهائلة ، وأمام ذلك الأسطول

الكثير العدد ، وقف عند باب القديس رومانوس ، أخطر نقطة فى السور ، ثمانية آلاف من المدافعين كما تقول المصادر الافرنجية ، ولكن يجب ألا ننسى أن عدداً كبيراً من سكان المدينة قد جند للدفاع عنها أو لمساعدة الدفاع ونقل أدواته بل وترميم الأجزاء التى تخربها المدافع .

ولا يجب أن ننسى أيضاً أن هؤلاء المدافعين كانوا يدافعون من وراء أسوار مدينة أقل ما يقال فيها أنها من أمنع مدن العالم فى ذلك الوقت ، ولا ريب فى أن حامية صغيرة منظمة مجهزة بوسائل الدفاع الحديث تستطيع القيام بمهة الدفاع خير قيام ، وتستطيع رد الغازين على أعقابهم خاسرين .

كانت أهم فرقة فى المدافعين عن المدينة العظيمة فرقة الأجانب وهى مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل من الطراز الأول ، وهى تتألف من جنويين و بنادقة وعناصر من كريد وروميه وأسبانيا و بعض المرتزقة من الأتراك أنفسهم . وهنا نسأل هل جاء المدينة مدد حقيقى من الدولتين اللتين يهمهما مصير القسطنطينية ، جمهوريتى البندقية وجنوة . لم تقدم الدولتان مساعدة حقيقية للمدينة فى محنتها العظيمة . وهـذا لا يمنع أن أفراداً من هاتين الجمهوريتين قد قبلوا عن طيب خاطر التطوع للدفاع

عن هذه المدينة المسيحية الكبيرة ، و بذل دماءهم فى سبيلها . ربما كان دافع هؤلاء دينياً الحماس للكاثوليكية ، وربما كان المصالح المادية والتجارية ، وربما كان حب المغامرة ومقابلة المخاطر الجسيمة وركوب الصعب . وربما كان هذه الدوافع كلها مجتمعة .

بالرغم من ذلك وقفت مستعمرة غلطة الجنوبية ، وجارة القسطنطينية من ناحية الشمال ، وقفت موقف الحياد التام حرصاً على رضا السلطان القوى ، وتمسكت به ، فلم تساعد أحداً من الفريقين ، ولم تنصر أحدهما على الآخر .

ونندهش للمساعدة الضئيلة التى قدمها الغرب ، فهل أصبح مصير قاعدة المسيحية فى الشرق لا يهم الغرب ؟ لم تكن مسألة اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية محبوبة حباً جماً . ولذا قاتل أفراد ذلك الفريق القليل المتطوع وحدهم بقوة وشجاعة وحماس إلى النهاية ، إلى أن بذلوا دماءهم فداء للمدينة ، ولكن ذكراهم لم تنس ، ولم يندثر تاريخهم ، فلقد أرخ لهم أحد زملائهم ومواطنيهم ممن قاتل وضحى معهم وهو باربرو ، وبجانب هذا الفريق ألفان ممن عسكروا فى السفن الراسية فى القرن الذهبى والسفن التى كانت بالدفاع عن الميناء .

لم تجد أوربا العظيمة غير ثمانية آلاف من الجنود المدربين حقيقة

لدفع أكبر خطر عرفه العالم على مدينتها العظمى بينهم عدد قليل لا يزيد عن الألف من الجنود المدرعين .

وعسكر الأمبراطور ، وحشد جنوده فى ناحية وادى ليكوس ، وهى المنطقة الضعيفة فى الاسوار عند باب القديس رومانوس ، وعقد المجالس الحربية لتنظيم أمور الدفاع عن المدينة ، وعهد إلى جون جوستنيانى الدفاع عن هذه الناحية ، ولم يكن لدى المدافعين مدفعية قوية ، وحتى مدافعهم الصغيرة لم يستطيعوا نصبها على الاسوار التى أصبحت فى حالة رثة ، فهى لا تحتمل المدافع ولا طلقاتها .

كان تسليح المحاصرين بصفة عامة سيئاً ، فلم يكن لديهم السلاح الكافى ولا السلاح الجيد ، ولكن كانت عندهم النفوس القوية والعزائم الحديدية قد جعلوا نذراً قتال الأتراك حتى الممات .

وفى هذه الأثناء كان بلطه أوغلى قائد الأسطول العثمانى قد نفذ أوامر سيده بدقة وراقب بأسطوله حركات الأعداء عند مدخل القرن الذهبى ، وبعث جزءاً من أسطوله لمهاجمة الجزر القريبة فى بحر مرمرة فأحرق بعضها وباع سكانها الذين نجوا من عذاب الحريق .

وتمكن العثمانيون من نصب مدافعهم الضخمة القوية أمام الأبراج

وأخذوا فى ضرب المدينة ودق أسوارها بقذائف زنتها مائتا رطل وساروا فى عملهم بنشاط وحماس لانظير لهما .

وكان على المحاصرين أن يراقبوا بحزن عميق وقلق ضرب مدينتهم الجميلة ، وهذه القنابل الكبيرة تنهال على أسوارها فتحدث الخراب والدمار ، وتحدث رجة وهزات عنيفة ، كما كان على سكان المدينة أن يراقبوا حركات الأسطول العثمانى ، وأخذوا يدأبون على إصلاح الأسوار وتعمير مادمر منها من جديد ، وكان الجهد الذى يبذلونه قاتلا ، لايستطاع معه الصبر مدة طويلة ، وعانوا من الذعر والفزع والتعب مالم يعانيه سكان مدينة أوربية فى العصور الوسطى .

وكانت هناك بعض مناوشات فى أول الأمر من ناحية الانكشارية الذين كانوا يسخرون من الموت كما يقول معاصروهم من الافرنج ، فلقد كانوا يغشون ساحة الوغى كالأسود الكاسرة التى لا تفكر فى شىء ، وإذا سقط وحدان منهم حملهم الآخرون على ظهورهم متعرضين للموت متجشمين الخطر مسارعين إلى الهجوم فاذا قتلوا حملهم آخرون من رملائهم بحيث لايبقى منهم أحد ثاوياً بجانب الأسوار .

ولذا لم يستطع المحاصرون النوم لحظة من الوقت أمام الضرب.

المتواصل وأمام خطر الهجوم الذى يهدد من لحظة إلى أخرى ، وأمام الهجوم البحرى الذى قد يقتحم القرن الذهبي .

وفى أثناء الحصار جاءت مكاتبات من هونيادى المجرى يعلن فيها إلى أهل القسطنطينيه أنه قد أعاد أمور الدولة إلى الملك فلاديسلاف وأنه أصبح من أجل ذلك فى حل من اتفاقه مع السلطان محمد الثانى ، ربما ظهر ذلك الموقف الجديد فى مصلحة البيزنطيين فقد يهدد هونيادى ومن معه من المجر حدود بلاد السلطان من الشمال الغربى مما قد يدعو السلطان إلى رفع الحصار عن المدينة فترة من الوقت تستطيع معها التنفس . ولقد أطلع السلطان مبعوثى المجر على مدفعيته العظيمة وانصرف المبعوثون سالمين إلى بلادهم ، وانتهى الأمر عند هذا الحد .

وبعد مرور أسبوع من الحصار كان التلف بجدران الأسوار قد وصل إلى درجة ظن فيها أن الترك سيقومون بهجوم لاقتحام أسوار المدينة عنوة . ولذا فى ١٨ ابريل بدأ هجوم عنيف على الأسوار هلك فيه جم غفير من الاتراك . وإن كانوا بأصوات طبولهم وأبواقهم وتكبيراتهم يظهرون أكثر عددا مما هم . وبلغ الأمر حداً أن الامبراطور البيزنطى كاد يهلك من الجزع ، ولم يجد غير الدموع يطفى بها لهيب جزعه على مدينته وعاصمته الكريمة . لم يكن المدافعون مستعدين تماما

لهذا الهجوم غير المنتظر ، ولكن كما يقول باربرو مؤرخ فتح هذه المدينة « لم يسمح الله بدخول الاعداء المدينة هذه المرة » وانتهى الهجوم دون نتيجة بعد أربع ساعات فى نضال مستمر عنيف ومحاولات لتسلق الاسوار ونقبها .

وكان هذا الفشل المؤقت الذى لحق محاولة الاتراك داعيا إلى تقوية نفوس البيزنطيين وحلفائهم من الاجانب ، وزيادة ثقتهم بأنفسهم وتضاعف مجهوداتهم لاصلاح العطب الذى نال الاسوار ، وشكر الامبراطور قسطنطين وقساوسته الله على ذلك النجاح .

وقامت مع هذه المحاولة محاولة من الاسطول العثمانى لاقتحام القرن الذهبى ، وكان الأسطول مجهزاً بكل وسائل الحرب المعروفة فى ذلك الوقت ، ويحمل عدداً كبيراً من المحاربين ويسير معظم سفنه بالمجاذيف ، تقدمت السفن العثمانية بعددها ورجالها لمهاجمة السفن التى تحمى مدخل القرن الذهبى ، ولكى تقطع السلسلة ومن القرن الذهبى تحاصر المدينة من ناصيتها الغير محمية .

ويظهر أن رجال البحرية العثمانية لم تكن لهم الدراية الكافية ولا العدة اللازمة للحرب البحرية ، وأصابهم كذلك بعض الزهو والغرور

بكثرة عدد سفنهم ، ولم يقدروا تماما مالعدوهم من قوة وخبرة ومعرفة بأمور الحرب البحرية . هاجمت السفن العثمانية أعداءها ، وألقت بأحجارها ورمت بأسهمها النارية وطرحت بقوارير النفط ، نيرانها ومشاعلها ، اقتربت من سفن الخصوم تحاول إحراقها وتدميرها ، حاولت قطع حبال سفن الأعداء ومراسيها ، وأضاء الجو بالنور ، بالمشاعل فكان منظراً باهراً .

وأما سفن المسيحين فلقد أظهرت جلداً وصبرا كبيرين ، وكانت أكبر وأضخم وأعلى من السفن العثمانية ، فكانت تستطيع إصابة سفن العثمانيين ، ولا تستطيع سفن العثمانيين إصابتها بسهولة ، وكانت مستعدة بعد ذلك للقتال تمام الاستعداد ، ونظمت مواقفها بحيث تجعل الدفاع سهلا . ودفعت أحجار الترك بأحجارها وأسهمهم بأسهمها ونيرانهم بالأوانى المعدة لصب الماء . حاول الترك اقتحام السلسلة ، وحاول المسيحيون منعهم ونجحوا فى ذلك ، واضطر الأسطول التركى إلى الانسحاب يتبعه صياح الأعداء وتهليلهم بفوزهم ونصرهم .

ولكن عزيمة السلطان محمد الثانى لم تكن تعرف الكلال أو اليأس فحاول اختراع وسيلة لضرب أسطول الأعداء من البر بمدافعه الكبيرة

وإغراقه فى مراسيه ، ولكن هذه الخطة لم تكن ناجحة وإن كانت أحرزت بعض النجاح ، فلجأ إلى غيرها .

ثم حدث فى ٢٠ إبريل أن أقبلت ثلاث سفن جنوية كبيرة وأربعة أخرى تحمل جنودا ومؤنا وبضائع وسلاحا ، وهى آتية من الجنوب ، ورآى الأتراك هذه السفن الثلاث تقترب من المدينة المحاصرة . عند ذلك أمر السلطان قائدة البحرى بمهاجمة هذه السفن مباشرة ومنعها من الوصول إلى المدينة المحاصرة ، والاستيلاء عليها أو تدميرها ، وختم السلطان أمره إلى قائده « إذا لم تنجح فى ذلك فلا ترجع لى حيا » .

وكان عدد السفن العثمانية التى أمرت بمهاجمة السفن الأربع الجنوية مائة وخمسون من أحجام مختلفة ، فكيف استطاعت سفن الأعداء القليلة العدد الهرب أمام ذلك الأسطول الضخم — ؟ تم ذلك بمعجزة من المعجزات ما كانت منتظرة .

لقد أصاب العثمانيين الغرور هذه المرة بشكل أوضح من المرة السابقة ، فعددهم يتفوق تفوقا حاسماً ، وكانوا واثقين تماماً من الانتصار وبلوغ مرادهم . ولقد دقت طبولهم ومزاميرهم ، وعلت أصواتهم وتكبيراتهم وكان سكان المدينة يرون من على أسوارهم وبقلق متزايد السفن التى

أتت لتقضى على سفن أصدقائهم . لقد ظن باطه أوغلى أن قوته ستقضى على الاعداء بسهولة .

طلب الأسطول التركى من هذه السفن التسليم وإلا يصيبها الدمار . ولكن السفن المسيحية رفضت بإباء وشمم ، وقامت معركة دامية زاد فيها الصخب وعم الهدير وكثرت اللعنات من الطرفين ، وسقط القتلى والجرحى من الأتراك ، كانت الريح فى أول الأمر تساعد السفن الجنوية ، ثم وقفت الريح فجأة فتحول الموقف لصالح الأتراك وقام قتال عنيف بين السفن .

ولكن الايطاليين كانوا مدرعين بالصلب وسفنهم متفوقة فى الحجم والقوة ، ولذا ظل الأتراك بالرغم من وفرة عدد سفنهم فى مركز ضعيف وكان سكان المدينة يشاهدون الموقعة ، ولا يستطيعون لمن جاؤا لمساعدتهم نصرا ، ولكنهم كانوا يدعون لهم بالفوز ويرجون لهم الملائكة والقديسين بالعون ، وكان السلطان هو الاخر ينظر إلى الموقعة من الساحل ، وينتظر من حين لآخر القضاء على السفن المسيحية .

ظلت الموقعة مدة ساعات غير معروفة النتيجة ، وهاجمت السفن التركية بقوات متجددة تحفزها أوامر السلطان وهتاف الجيوش العثمانية

على الساحل ، وكادت تقضي فعلا على سفن الأعداء ، لولا أن عادت الريح فتحركت فى صالح الأسطول المسيحى فأبعدت سفن الخصمين عن بعضهما ، فسفن المسيحين سفن شراعية ، بينما معظم السفن التركية تعتمد فى الغالب على التجديف ، ولذا انتهت الموقعة رغم أنف الأتراك فلقد بعدت سفن جنوة عن الأسطول التركى ، وتمكنت من دخول الميناء آمنة مطمئنة ، فكانت هذه معجزة فى مصلحة أهل القسطنطينية الذين أذهلهم الفرح لنجاة إخوانهم من هلاك محقق محيط ، ثم لوصول المدد إليهم ، وظنت مدينة القسطنطينية لحظة من الزمن أنها قد أنقذت .

وجاءت بعد ذلك مقابلة بالطه أوغلى للسلطان الثائر الغاضب وكان أمير البحر التركى قد فقد إحدى عينيه فى الموقعة ، وبذل قصارى جهده ، ولكن الحظ خانه .

ولكن غضب السلطان فى ذلك الوقت لم يكن يعرف حدا ، فعاقبه أشد عقاب فأمر بجلده وانتزاع أملاكه ونزعه من منصبه .

وليكن مجىء هذه السفن المحملة بالمؤن جعل أهل القسطنطينية يظنون أن ذلك مقدمة لمدد آخر آت فى الطريق أو على وشك المجىء ، ولكن هذه الآمال لم تحقق فلم يظهر أى أسطول آخر .

هذه الهزيمة التي لحقت بالأسطول العثماني زادت في تصميم السلطان محمد الثاني وعزمه على الانتقام ، فزاد ضرب المدافع للمدينة إلى درجة أصبح دويها يصم الآذان ، وإلى حد أن أحدث تلفا كبيراً بالأسوار وخاصة من ناحية باب القديس رومانوس . وفي هذه الأثناء كان السلطان يجري تجربة على جانب عظيم من الأهمية ، وكان أهل القسطنطينية قد ظنوا أن السلطان سيقوم بهجوم عام على مدينتهم ، ولكن التجربة التي كان يقوم بها محمد الثاني سيكون لها أثر كبير في سقوط المدينة الحصينة .

وإذا كانت محاولة الاسطول العثماني اقتحام مدخل القرن الذهبي لم تنجح فلا بد في نظر السلطان من تجربة يستطيع بها تحاشي الاصطدام بالسفن الموجودة في فم الميناء . . ففكر في نقل جانب كبير من أسطوله عن طريق البر من وراء غلطه وبيرا من البوسفور إلى داخل القرن الذهبي .

فقد جمع السلطان الاخشاب اللازمة ، وعمل حساباً للدفاع عن المشروع إذا حاول أهل القسطنطينية عرقلته فمهدت الارض أولا ، ووضع الخشب بطريقة يسهل عليها انزلاج السفن وجزها . وكان

أصعب جزء فى المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفع . ولكنا يجب أن نلاحظ أن السفن العثمانية كانت بصفة عامة صغيرة الحجم خفيفة الثقل نسبيا .

تم المشروع بسرعة قبل أن يستطيع البيزنطيون التدخل والعمل على إتلاف السفن ، فالسلطان قد أخذ حذره تماما ولم يترك شيئا للظروف . ولذا فى ٢٢ ابريل نجح السلطان فى نقل حول سبعين سفينة من البوسفور إلى القرن الذهبى .

وكان هذا العمل عظيما بالنسبة للعصر ، بل معجزة من معجزاته فى سرعة التنفيذ . ولو أن فكرته ليست من خلق السلطان محمد الثانى ، فهى فكرة قديمة استخدمت فى الماضى ، ولكن تطبقها وتنفيذها بهذه السرعة و بهذه الدقة يدل بلاشك على عقلية ممتازة ونفس واعية تستطيع الأحاطه بتفاصيل الأشياء ، وهمة عظيمة ، وإرادة فولاذية وعزيمة صادقة ونشاط متدفق لايعرف الكلل والملل ثم إلهام الناس بالطاعة التامة والتضحية بكل ماتمتلك النفس من عزيز . وكان المحاصرون فى مدينة القسطنطينية أكثر الناس تقديرا لذلك العمل الأجل واهتماما ، فما كان يستطيع التصديق به ، إلا من رآه . فلقد كان منظر هذه السفن

تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرها إثارة للدهشة .

وأعجب من هذا سرعة نقل هذه السفن على منحدر الجبل مما يدل على كثرة الأيدى العاملة التى كانت تقوم بتنفيذ ذلك المشروع الضخم وحماسها ونشاطها . لقد تم كل ذلك فى ليلة واحدة !! وبهذا أصبح القرن الذهبى تحت رحمة مدافع زغنوس باشا . والفضل فى ذلك للمهندسين الأتراك ، فلقد شهد معاصروهم حتى من الأجانب بمواهبهم ومقدرتهم الممتازة .

وفى أثناء نقل الأسطول العثمانى عبر البر لم تقف المدافع العثمانية لحظة عن الضرب حتى لا تحاول السفن الأغريقية الراسية فى الميناء التحرك لمهاجمة السفن العثمانية المرابطة فى القرن الذهبى .

ولا يمكن تقدير الذعر فى مدينة القسطنطينية حين ظهر الأسطول التركى فى القرن الذهبى فكان من الضرورى تحصين جبهة القرن الذهبى وترميم الأسوار الخربة ، ووضع من يقومون بالدفاع عنها ، وخاصة وأن هذه الجهة كانت موطن الضعف فى المدينة . إذ من هذه الجهة استولى الصليبيون عليها فى سنة ١٢٠٤ !

ماهذه الظروف المؤلمة لحامية قليلة العدد نال منها القتل والجراح

والتعب ! عليها الآن أن تقسم نفسها لتدافع عن أخطر نقطة فى أسوار المدينة . لقد حوصر الأسطول الأغريقى فلم تعد له حرية الحركة ، ووقع فى خطر عظيم .

لقد كان الموقف ميئساً للغاية . فماذا تعمل بيزنطة أمام عدوها الهائج القوى . وكان على المحاصرين أن يراقبوا بدقة حركات الأسطول التركى فى القرن الذهبى خوفا من أن تدمر سفنهم ، وأخذوا يفكرون فى كيفية تدمير الأسطول العثمانى ، ولكن هناك مغامرة فى تنفيذ مثل ذلك المشروع ، لقد قال فريق بجمع السفن المسيحية ومهاجمة السفن الإسلامية الراسية على الجانب الآخر للقرن الذهبى .

ولكن لتنفيذ مثل هذه الخطة كان من الواجب تعاون الجنويين فى غلطه ، ولكن الجنويين فى غلطه ما كانوا يجرؤون على إعلان الحرب على السلطان أو القيام بعمل يرى فيه السلطان أى اعتداء على حقوقه .

وقال فريق بارسال قوة لمهاجمة السفن التركية وتدمير البطاريات الموجودة هناك . وقال فريق ثالث بأن تقوم السفن المسيحية بمهاجمة الأسطول العثمانى دون استشارة جنوى غلطة أو موافقتهم ، ويكون ذلك بسرعة قبل فوات الوقت . وأقر ذلك المشروع وقرر تنفيذه .

وفى ٢٤ إبريل قامت سفينتان تؤيدهما سفينتان أخريان لتأدية هذه المهمة ، ويقول المؤرخ المعاصر باربرو بأن الجنويين أصحاب بيرا وغلطه « أعداء المسيحية » قد أعلموا السلطان بالمشروع البيزنطى ، فأخذ السلطان حذره واستعد استعداداً كافياً بتحصين المكان الذى تجمع فيه الأسطول العثمانى وأعده بالأسلحة اللازمة. لقد رأى الجنويون فى هذه الحملة البيزنطية حملة للبندقة يجب معارضتها والعمل على إخفاقها.

فإلى هذا الحد تدخلت الأحقاد والمنافسات بين الجمهوريتين الايطاليتين جنوة والبندقية ، وكان غرض الجنويين التقرب للسلطان على حساب بيزنطه والبندقة .

كان على البيزنطيين الآن تقسيم قوات دفاعهم وتوجيه جانب لا بأس به من هـذه القوات إلى إلى الدفاع عن ناحية القرن الذهبي ، ولما كانت قوات الدفاع عن ناحية القرن الذهبي ، ولما كانت قوات الدفاع قليلة العدد كان اقتطاع جزء منها معناه إضعاف الدفاع فى النواحى الأخرى .

وأحس البيزنطيون بذلك الخطر الجديد ، ولا بد من العمل على مقاومة الأسطول التركى الموجود فى القرن الذهبي قبل أن يستفحل خطبه ، ولذا وضع مشروع لتدمير السفن العثمانية فى مراسيها . ولم ينفذ المشروع

البيزنطى الجديد إلا فى ٢٨ إبريل فكانت ثلاث سفن كبيرة ، وسفن أخرى صغيرة بهمة الهجوم ، واختلف قباطنة السفن فيما بينهم ، فأراد البعض التقدم فى الهجوم لينال شرف الفوز ، فأصابهم جميعا الفشل الذريع ، وانطوت سفنهم فى اليم غرقى بمن فيها ، وانهزمت الحملة وسقط المشروع ، ورجعت السفن المسيحية التى نجت بصعوبة من مدافع الأتراك .

وكان لهذه الهزيمة أثر كبير على نفوس المحاصرين ، فلقد فشلت آمالهم وتحطمت ، وضاع جانب كبير من ثقتهم بأنفسهم ، وأما من استطاع من البحارة الأغريق أو الأجانب الوصول إلى الشاطىء ، فلقد قبض عليهم الأتراك وضربوا أعناقهم تحت أسوار المدينة المحاصرة وتحت أنظار البيزنطيين ، وأجاب الامبراطور البيزنطى على ذلك بأن أتى بمائة وخمسين من الأتراك ، وشنقهم على الأسوار بمرأى من الجيش التركى . وقام النزاع الحاد بين البنادقة والجنويين فى القسطنطينية ، وتحزب لكل من الفريقين بعض الأهالى ، واتهم كل واحد منهما الآخر بأنه سبب الفشل البحرى السالف الذكر ، وكادوا يتشاجرون لولا تدخل الامبراطور البيزنطى فى الوقت المناسب ، ونصحه للفريقين بأن يراعيا قبل كل شىء مصلحة المسيحية التى تعانى الآن من خطر كبير لا يرحم حياتها ولا ضعفها .

واستمر الأتراك فى دق أسوار المدينة وفى محاولات نقبها ، واستمر البيزنطيون فى محاولة إصلاح العطب ليل نهار دون هواده ولكى يسهل السلطان محمد الثانى الاتصال بين جنوده على الضفة اليسرى للقرن الذهبي وجنوده حول الأسوار أنشأ قنطرة عظيمة عائمة ينتهى طرفها عند نقطة ضعيفة فى الأسوار البيزنطية ، مما دعا المحاصرين إلى اتخاذ وسائل الحيطة فى هاته النقطة وتقسيم الدفاع الصغير العدد من جديد .

لقد زاد مركز المدافعين ضعفاً على ضعف ، فعددهم قليل و يتناقص باستمرار و بسرعة ، وعليهم الدفاع عن أسوارطو يلة ضعيفة فى بعض النقط ، أمام مدفعية متفوقة ، وعدو لا يرحم ، فكان لا يهدأ للمحاصرين بال ، ولا يسكن لهم روع ، ولا تطمئن لهم نفس أمام ذلك الضرب المتواصل من كل جانب ، بينما كان عددهم يقل ، ورعبهم يزداد فى كل وقت خشية مباغتة الأتراك لهم ، واستمرت الحال على هذا النحو إلى آخر اليومين الأوليين من مايو ، فبدأ يظهر للعيان جليا عجز المؤن داخل المدينة وخاصة الخبز والنبيذ وكل ما يلزم لتقوية الجنود المدافعين المرهقين .

وكان على المدافعين أن يتركوا مواضعهم فى كثير من الظروف

ويقطعوا المسافات الطويلة داخل المدينة لاكتساب رزقهم وتناول الطعام مع عائلاتهم ، ورأى الامبراطور البيزنطى خطر الموقف ، فعمل على توزيع الطعام على الجنود فى أماكنهم ، وفى الوقت نفسه كان السلطان محمد الثانى حريصاً على تغيير المهاجمين ومن يقومون بالضرب بحيث يستطيعون الاستراحة والاستجمام واستعادة النشاط .

وفى أثناء هذه الظروف القاسية فكر الامبراطور فى بعث سفينة لحث أسطول البندقية فى بحر الأرخبيل على الاسراع لمعونة القسطنطينية فى أيامها الأخيرة ، وبذل آخر مجهود لانقاذ أعظم مدنية مسيحية فى البلقان ، ولكن هذه السفينة التى تحمل آخر أمل للعاصمة البيزنطية لم تجد الأسطول البندقى ورجعت خائبة حزينة آسفة .

ثم أمر السلطان بالهجوم على الأسوار مرة أخرى هجوماً عنيفاً ، حينئذ طلب البطريرك وعظماء القسطنطينية وجستنيانى إلى الأمبراطور قسطنطين أن يترك العاصمة نهائياً وأن يذهب إلى مكان آخر يستطيع منه إثارة الأمور على العثمانيين ، فقد يضطرون إلى رفع الحصار عن العاصمة ، ووضع جستنيانى إحدى سفنه تحت تصرف الامبراطور ، ووعد بمساعدته على الخروج من عاصمته المحبوبة . وكان الغرض من هرب قسطنطين أن يجمع حوله شتات رعاياه فربما استطاع الاتفاق

مع إسكندر بك الألبانى أو البابا ، ولكن الأمبراطور أنصت لهذا النصح ساكناً ، ثم أطرق ملياً يفكر تفكيراً عميقاً ، ثم شكر أتباعه على النصيحة القيمة التى أسدوها وقال :

« ربما يكون فى خروجى من المدينة بعض الفائدة لى . . ولكنه من المستحيل أن أخرج ، وكيف أترك معابد الله يذكر فيها اسم الله ، وكيف أترك موالى الرب ورجال الدين والعرش والشعب فى هذه المحنة العظيمة ، ماذا يقوله العالم عنى ، أننى أرجوكم ألا تنكروا فى المستقبل هذه الكلمة « اخرج » وإنما قولوا لا تتركنا ، ولن أتركم مادمت حياً ، فلقد عزمت عزما لارجوع فيه على الموت معكم » .

ثم بكى الأمبراطور و بكى معه البطريرك وكل الحاضرين .

فى هذا الوقت تبدت شخصية هذا الأمبراطور العظيم و بطولته أمام أهوال ومحن تكل عن تحملها الجبال الرواسخ .

وفى ١٢ مايو قام الأتراك بهجومهم العنيف ، وكانت الأسوار قد نالها عطب كبير ، ولكن ذلك الهجوم لم يصب نجاحا كبيراً ، وامتلأت الكنائس داخل المدينة بالمصلين الذين يدعون الله قياما وقعوداً بانقاذ المسيحية فى بلاءها العظيم .

ووجد السلطان محمد الثانى أن يركز الضرب فى منطقة باب القديس

رومانوس ، وهاجم العثمانيون مراراً الأسوار على فم القرن الذهبي دون جدوى . وحاولوا حفر سراديب تحت الأسوار ونجحوا فى ذلك إلى حد ما ، ولكن الأغريق تجحوا فى القضاء على ذلك المشروع . ولكن محاولات الأتراك هذه أقضت مضاجع السكان ، فكانوا يخشون كل ليلة دخول الأتراك المدينه فجأة بهذه الوسيلة ، وتصوروا سراديب خيالية نجح الأتراك فى إنشائها

ولقد لجأ السلطان إلى بناء حصن متحرك سريع أمام الأسوار مما أدخل الرعب فى قلوب المحاصرين ، وأنشأه بطريقة بحيث لا يمسك به اللهب . ويصيب كل آلات الرمى والضرب فى المدينة ، مما جعل الدفاع فى خطر شديد ، فلقد تحطمت أربعة أبراج وامتلأ الخندق ، وقام الاتراك بهجوم عظيم فى ناحية باب القديس رومانوس ، ولكنهم اضطروا إلى الانسحاب مرة أخرى أمام دفاع البيزنطيين اليائس ، وبذا نجت المدينة ، واحترق حصن الاتراك المتحرك بأكمله مما زاد فى فرح الاغريق ، فعادوا يشكرون العذراء على إنقاذها لهم .

* * *

فتح القسطنطينية

ولكن السلطان محمد الثانى ما كان يعرف اليأس أو يتسرب إلى نفسه القنوط ، فعاد إل اتخاذ خطط جديدة . وفى أثناء ذلك الوقت رجعت البعثة التى كانت أرسلتها القسطنطينية لتستحث أسطول البندقيه الذى كان يظن أنه موجود فى البحر الارخبيلى . لم تجد هذه البعثة الاسطول ، ورجعت متحطمة الآمال . ولما عرفت المدينة المحاصرة ذلك النبأ العظيم سكنت قلوب أهلها لحظة وذرفت عينا الامبراطور البيزنطى بالدموع ، وكان ذلك آلم خبر تلقته المدينة البائسة المفزوعة التى توشك أن تقع فى أيدى أعداء حلفوا جهد أيمانهم ليستبيحنها — كان ذلك الاسطول آخر أمل لهؤلاء المحاصرين المرهقين الذين لم يذوقوا طعم النوم ولا الراحة ، كان آخر أمل لهم مجئ أسطول البندقية لنصرتهم و إمدادهم و إعطائهم فرصة للأمل فى الحياة والراحة والهدوء بعضاً من الوقت ، ولكن توفى ذلك الأمل كما توفيت الآمال السابقة .

كان ذلك فى مساء ٢٣ مايو ، وعرف أهل القسطينية أن المسألة مسألة أيام للهجوم التركى العام والاستيلاء على المدينة . ولقد عقد الامبراطور مجلساً للنظر فى الحالة ، فنصح أعضاء ذلك المجلس له بالهرب ،

« إذا لم يمكن حماية المدينة ، فيجب حماية الأمبراطور . عند ذلك أغمى على ذلك الامبراطور الذى ناءت به المخاوف وأنهكه بذل النشاط المتواصل ، وكاد يقتله التعب المستمر فما عرف راحة ولا هدوءاً عقلياً أو جسمياً ، ولكنه أبى إلا أن يشارك أهل المدينة مصيرهم ، وقال : « إن عدداً كبيراً من الأباطرة قد مات وهو يحمل السلاح ويقاتل فى ميدان الحرب ، ولن يكون هو الوحيد الذى يفر من ميدان القتال خوفا من الموت أو حرصاً على الحياة » .

وأما فى الجانب الاسلامى ، فلقد عرف الاتراك العثمانيون أن المدفع وحده والصبر هما اللذان سيقضيان على هذه المدينة ، ولذا فالضرب مستمر ليلا ونهاراً واشتغل أهل المدينة رجالا وشباناً وشيباً ونساء وأطفالا فى تعمير العطب الفادح الذى لحق الاسوار ، وانتظروا جميعهم فى هلع متزايد من ساعة لأخرى هجوما عاما للأتراك لا يبقى أمامه شيئاً ولا يذر .

وكثرت الأوهام والخيالات ، وتصور الناس ما شاء لهم التصور ، فبعضهم تصور جيشا مجريا عظيما بقياده هونيادى قد زحف لتخليص القسطنطينية ، وتوهم البعض أسطولا عظيما قادما من البحر ، وظن الآخرون أن الملائكة سيتدخلون فى آخر لحظة ويدمرون الأعداء تدميرا .

ولكن هذه الخيالات كانت سرعان ما تتقشع وهذه الأوهام سرعان ماتتبدد وأصبحت هباءاً لا قيمة له ولا غناء أمام الوقائع والحقائق التى تراها أعينهم ويحسونها . لقد مضى زمن المعجزات وخارت قوة الدفاع ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع وكيف يحيا أمل أمام قوة الاتراك الساحقة وتصميمهم على أخذ المدينة ، وأمام مدافعهم الضخمة التى تحدث من الدوى ماتهلع له القلوب ، وتحدث من التخريب والتحطيم فى أسوار المدينة ماشاءت أن تصنع .

وركز ضرب المدافع الشديدة فى ثلاث نقط من ناحية باب أدرنة و باب القديس رومانوس والثالثة ناحية الباب الثالث الحربى ووضع سكان المدينة أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت وكان أكثر النواحى عطباً الناحيتين الأوليين .

ثم أرسل السلطان محمد الثانى قائد هذه القوة العظيمة وزعيم ذلك الشعب القاهر المنصور ، أرسل رسوله اسماعيل حمزه اسفنديار أوغلى لكى يحمل إلى الأمبراطور البيزنطى نصيحة سيده فيقرر له أنه لم يعد هناك فائدة من الإستمرار فى الحرب : وأن المدينة ستسقط عنوة ، وتنهب ، وتنتهك حرماتها ، يقتل رجالها وتصطفى نساؤها وأطفالها ، أو تباع فى الأسواق ، وأن السلطان محمداً يقترح أن يخرج الامبراطور

من المدينة هو وأهله وحاشيته و بلاطه إلى البلوبونيز ، ويحكم هناك ، ومن شاء من أهل المدينة فليخرج فى أمان ، ويتعهد السلطان بحماية البافين ، والمحافظة على حياتهم وممتلكاتهم ، وذلك إذا قبل الأمبراطور تسليم المدينة .

وكان يربط اسفنديار بقسطنطين صلات معرفة قديمة ، فنصحه بالتسليم ، ويظن بعض المؤرخين أن السلطان لم يكن مخلصاً فى دعوته هذه ، وما كان يريد فعلا تسليم قسطنطين ، وإنما كان يريد أن يدرس الحالة النفسية فى القسطنطينية ، ولا يوجد شىء يدعو إلى الشك فى إخلاص السلطان فى دعوته قسطنطين ، فهو يعرف أن المدينة قد تستطيع الدفاع مدة أخرى وهو بلا شك يرغب فى حقن دماء الفريقين ما دام يستطيع الوصول إلى غايته ، وهى أخذ المدينة ، ولكن كان السلطان يفهم أنه لن يخسر شيئاً من وراء ايفاد هذه البعثة فهى إذا لم تصل إلى غرضها تستطيع التقرير عن حالة المدينة .

على أى حال كان الامبراطور قسطنطين يفهم ما يقضى به عليه واجبه ، ويعمل على المحافظة على مركزه ، فهو لن يقيم على ضيم يراد به مهما كانت النتائج ، لقد كان يستطيع الفرار إذا كانت الحياة الدنيا قد ملسكت عليه نفسه ، ولكن قسطنطين بين لمبعوث السلطان أنه

لن يستطيع قبول هذه الشروط المهينة ، وإنه لم يطالب ولن يطالب بديلا بمدينته ، وعاصمة ملكه ، وحاضرة من سبقوه من الأباطرة ألف عام ، ثم بعد ذلك ليس لديه أى سلطة تبيح له تسليم المدينة ، وأنه قد وطد النفس على الموت .

وبذا يئس السلطان محمد الثانى نهائياً من تسليم المدينة صلحاً ، فلا بد إذن من بذل كل جهوده لدخولها عنوة .

ولذا فى ٢٧ مايو سنة ١٥٤٣ عقد مجلساً حربياً فى معسكره أمام الأسوار وتناقش هو وقواده فيما ينبغى عمله ، ويقال أنه عرض رأيان فى ذلك المجلس العسكرى ، فكان الرأى الأول رأى خليل باشا ، وهو رجل مسن قد إزداد حذره بقدر ما إزدادت تجاربه ، ولكن السلطان لم يكن بكبير التعلق به بالرغم من أنه أبقاه فى منصبه ، وكان البعض يتهمه بمالأة المسيحيين .

بين خليل باشا أنه لا داعى لبذل هذا المجهود العنيف فى أخذ هذه المدينة ، ولا داعى لكل هذه العمليات الحربية ، ولا مبرر لاراقة الدماء بهذا الشكل الاستيلاء على المدينة ، فهى ستسقط من تلقاء نفسها إن عاجلا وإن آجلا ، ثم بعد ذلك هل ستقبل أوربا سقوط القسطنطينية ؟ ففى نظر خليل باشا لن تسمح أوربا بسقوط هذه المدينة

بسقوط حصن المسيحية فى يد المسلمين ، فالبندقية ستتدخل بأسطولها ، وكذا هو ينادى المجرى ، ثم المدينة بعد ذلك حصينة ، واللاتين متفقون فيها مع الأغريق ، ولقد مضى وقت طويل ، وبذل مجهود كبير ، ولم تسقط المدينة بعد ، ولقد بذل الأتراك تضحيات كبيرة بدون فائدة ، وأن من الخير ترك المدينة مؤقتاً ، حتى يزداد مركز العثمانيين قوة وتسقط المدينة فريسة سهلة فيما بعد .

وكان الرأى الآخر رأى زوغنوس باشا الألبانى ، قائد الجنود غير النظامية ، وهذا الرجل من أصل ألبانى اعتنق الأسلام وحسن إسلامه وجاهد فى سبيله جهاداً مشكوراً ، وسما مركزه ، فأصبح ثالث اسم فى الدولة العثمانية بعد السلطان ، هذا الرجل لا يزال قريب عهد بالشباب ، فهو ممتلىء قوة ونشاط وأطماعاً ، وكان بينه وبين خليل باشا حقد دفين ومنافسة حادة ، لقد نصح هذا القائد الهمام بالصبر والمثابرة وتقوية المحجوم ، وتمثل بالاسكندر الأكبر المقدونى الذى استطاع فتح آسيا بجيش صغير ، واستهزأ زوغنوس بالخطر الذى سيأتى من ناحية الغرب ، فبين أن الدول الأوربية المسيحية وخاصة الجمهوريات الايطالية منقسمة على نفسها ، وهى تضيع الوقت الثمين فى مشاجرات على مسائل تافهة ، ووضح أنه حتى لو استطاعت أوربا أن تتفق فيما بينها ، فهى

لن تقدر على إرسال قوة كبيرة لتخليص القسطنطينية فى الوقت المناسب ولذا لا يجب التفكير فى ترك المدينة قبل أن يتم فتحها للاسلام وللأتراك ولآل عثمان .

وأيد ذلك الرأى قادة الجيش الآخرين وضباطه، كما عضده العلماء بكل قوة وعلى رأسهم الشيخ آق شمس الدين والشيخ أحمد الكورانى خوجة السلطان .

ولقد كان السلطان محمد الثانى من نفس ذلك الرأى ، حتى قبل انعقاد المجلس العسكرى ، ولكنه أراد أن يجمع ذلك المجلس ليختبر قوة رجاله ويمتحن عزيمتهم وليعمل على تقوية ثقتهم بأنفسهم .

وكانت النتيجة ما يريد السلطان ، فلقد زاد جنوده عزماً على عزم للقضاء نهائياً على البيزنطيين وحلفائهم من اللاتين ، ولذا فكر فى هجومه الأخير الذى سيضع المدينة تحت أقدامه ،

وفى ٢٧ مايو أعد السلطان الهجوم العام على المدينة فصام الجيش كله، وعلت الدعوات بانجاز الفتح ، وأمر مدفعيته بالأمعان فى تحطيم الأسوار عند وادى ايكوس ، ونظم الفرق التى ستقوم بالهجوم العام ، فعلى كل فريق القيام بالهجوم من جهة معينة ، ثم إخلاء الطريق للفريق الآخر الذى سيقوم بالهجوم بعده ، وبذا تستطيع الجنود المهاجمة أن

تأخذ بقسطها من الراحة ، وزار السلطان كل أقسام جيشه المحاصر للمدينة وشجع الجنود وأثار فيهم روح التضحية ، وقوى فيهم الثقة بالنفس وبالنصر ، وطلب من الجنويين المقيمين فى غلطة أن يمتنعوا تماما عن تقديم أى مساعدة للمدينة المحاصرة .

وأرسل من نادى بين الجنود بأن المدينة ستترك لهم ثلاثة أيام يستبيحونها كيفما شاؤا ، رجالها ونساءها وأطفالها وكنوزها ستكون جميعها تحت تصرفهم لمدة ثلاثة أيام كاملة ، وأقسم بالله جهد أيمانه ليبرن بوعده ، وكان لذلك القسم أثر كبير فى نفوس الجنود الذين سيقومون بالهجوم .

ولقد أمر السلطان كل جندى بالمحافظة على الموقف المخصص له وعاقب بالقتل كل من حدثته نفسه بمخالفة الأوامر أوالاخلال بالنظام.

واستمرت المدافع العثمانية فى ضرب المدينة البائسة دون هوادة أو توقف ، وبشدة وعنف لا مثيل لهما فى ذلك الوقت ، فجرح جون جوستينيانى الجنوى زعيم المدافعين و بطلهم الغير مدافع ، واضطر سكان العاصمة المسيحية إلى نقله إلى داخل المدينة ، ولكنه رجع ثانى يوم ليعاود القتال . وفى أثناء ذلك أضاء المعسكر العثمانى كما كان يضاء كل ليلة بآلاف المشاعل التى تحول الظلام نوراً باهراً يأخذ بالأبصار ،

وكانت الجنود العثمانية قد جمعوا كل المواد اللازمة للصراع المقبل وللهجوم ولتسلق الجدران . وتعالت الأصوات للحى القيوم تنادى الله أكبر الله أكبر وتنطق بالشهادتين وتلعن المسيحيين وتنذر بالويل والثبور. وضربت الطبول ونفخت الأبواق والمزامير ، وحدث الجنود أنفسهم بالغنائم الهائلة العديمة النظير التى سيستحوذون عليها .

وبجانب هذا الحشد الهائل والأنوار الباهرة والطبل والزمر والتكبير بدت المدينة الحزينة المتألمة تترقب نهاية مفزعة ، تنتظر الفناء وتدعو الله أن ينقذها من العذاب الأليم ، ومن ذلك الخطر العظيم الذى لم تعرف مثله .

ثم أطفئت أنوار المعسكر الاسلامى فجأة وعم الظلام ، ولم يبق أمام المحاصرين سوى البكاء والتوسل إلى الله وطلب رحمته ، وجمعت الأيقونات ، وطلب توسطها هى والقديسيين لدى مريم العذراء أن تنقذ المدينة من العذاب الذى أحاط بها سرادقه ، ولكن ضرب المدينة كان مستمراً بدرجة ظن معها المحاصرون مجئ يوم القيامة .

وأمر السلطان أن يتعاون الأسطول مع الجيوش البرية فيقرب من البر ويهاجم الأسوار على ضفة القرن الذهبى ، وبذا يشغل عدداً كبير من المحاصرين فى هذا الجانب .

وقام السلطان بتفتيش الجيش واستعداداته بدقة وعناية كبيرتين فهو من الشخصيات القيمة التى تظهر قوتها فى المواقف الجليلة الحاسمة وهى التى تستطيع خلق الثقة فى النفوس وحفز العزائم ، والعبقرية هى التى تستطيع الاستفادة من التجارب السابقة وتحيط بالمواقف دراسة وتعرف مواضع النقص فتعالجها .

فى هذا اليوم نظم محمد الثانى جيوشه على نسق نادر المثال ، ثم جمع ضباطه وقواده فى اليوم السابع والعشرين من مايو ، وخطب فيهم كما تقول قصة أخذ القسطنطينية لشلوبرجر فقال :

« إننى لم أجمعكم فى هذا المكان لأبعث روح الحماس فيكم ، فما ينقصكم هذا الروح ، ولقد أظهرتم هذا الروح فى أكثر من موضع ، ولقد سرت عدوى هذه القوة إلى نفوس جنودكم ، ولكنى جمعتكم لأعرض أمامكم المكافأة والثواب الذى سينالكم بعد الهجوم القريب المنتظر ، فأمامكم مدينة الكنوز والثروة والجمال والغنى والنفائس التى تزدحم بها الكنائس العديدة والقصور الكثيرة . ستأسرون سادة القوم وتستعبدونهم ، وهناك النساء الجميلات والحور العين اللاتى لم تقع عين إنسان على مثلهن ، ستتزوجون بمن تشاءون منهن وتستخدمون من تشاءون » .

وصور السلطان جمال قصور القسطنطينية وقال إنه :

« يعدهم بمدينة عظيمة هى عاصمة الرومانيين القدماء ، مدينة المجد والترف والعز ، مركز العالم — هذه المدينة ستستبيحونها بما فيها من كنوز ورجال ونساء ، وذلك بعد أن وقفت أعواما طوالا أمام الأتراك وأمام الاسلام وعملت على إضعافه واتحدت مع أعدائه »

« إن سقوط القسطنطينية سيعطى للعثمانيين الطمأنينة النهائية ، ويفتح لهم كل بلاد الأغريق » و بين السلطان لجنوده « أن فتح هذه المدينة ليس بالأمر العسير ، فهى لن تقف أمام هجومهم » لقد سدت خنادقها وتهدمت أسوارها ، وانفتحت فيها ثغرات كبيرة ، وأن الطريق أمامهم واسعة لنيل المجد والعز واللذة ، فالمدافعون قليلو العدد قد أرهقوا إلى الموت ، وليس لديهم من السلاح أو عدد الحرب ما يستطيعون أن يناضلوا به مدة طويلة « ولذا فالنصر مكفول لنا »

وأشار إلى أنه بالإرادة القويةوالعزيمة الصادقة والطاعة العمياء فى تنفيذ الأوامر واتباع النظام والنصر مضمون لا مراء فيه .

ثم أمرهم عند ذلك بالرجوع إلى أماكنهم وتناول طعامهم والاستراحة والاخلاد إلى السكينة التامة حتى مطلع الفجر فتأتيهم الأوامر بالقتال وعندئذ عليهم بالهجوم العام .

وأعطى تعليماته لقواده العظام :

فالأسطول يقترب من الأسوار ويهاجمها من ناحية القرن الذهبي وزوغنوس باشا يهاجم الأسوار التى تقع فى ناحيته . وعلى صاريجه باشا أن يقوم بهجوم عام فى المنطقة التى تكثر بها الثغرات ، وأما اسحق باشا ومحمود باشا الاذان يقودان الجيوش الأسيوية أوجيوش الأناضول فيقومان بالهجوم من ناحيتها . ويقوم فريق بتسلق الأسوار يعضدهم فريق آخر بجانبهم ، وأن يشتد الهجوم فى منطقة باب القديس روسانوس حيث يوجد جون جوستنيتانى وتابعوه من الايطاليين والأجانب

وفى نفس المدينة الحزينة قامت الاستعدادات اليائسة ، فلقد علم سكانها بالهجوم العام الذى سيباغتهم ، ووقف كل منهم فى موضعه المخصص . وتخيل فريق آخر من آهالى القسطنطينية أن سكون المعسكر التركى معناه استعداده لترك الحصار ومغادرة المدينة ، ولكن الفريق الأكبر كان على يقين بأن الهجوم التركى العام قادم لا ريب فيه .

وعم الحزن المدينة ، وأيقنت بالهلاك ، وبكى رجال الدين عاقبة الفساد فى هذه الدنيا ، وسوء تصرف المسيحيين حتى حاق بهم هذا الوبال ؛ وأحاط بهم العذاب وتضاعفت عليهم الهموم من كل جانب . وظن الكاثوليك أن سبب ذلك الوبال رفض الأرثوذكس قبول

المذهب الكاثوليكى ، وظن الأرثوذكس أن ذلك العذاب نتيجة لقبول الدولة اتباع مذهب رومة ، وظن ثالث أن ذلك العذاب نتيجة لاهمال الدين وعدم تقديم فروض الاحترام الكافى للقديسين . وعنت كل الوجوه للحى القيوم الباقى ، وأما الأمبراطور فلقد أوضع فى الحرب ، وشمر فيها مستميتاً ، ورضى بما قسم الإله وقدر ، وسار فى موكب عظيم من الكاثوليك والأرثوذكس من القسس والرهبان ، من الرجال والنساء يبكون بالدمع الغزير ويمزقون شعورهم معلنين خطاياهم داعين الله أن يخفف عنهم ويغفر لهم ، وألا يوقعهم فى أيدى الأتراك ، وسار الموكب على هذا الحال منشداً الأدعية الدينية ، وردد ذلك من تبعهم من العامة والناس ، وحملت الانيقونات على الأسوار ذاتها .

وحث الناس فى المدينة الخالدة بعضهم بعضاً على الموت وعلى بذل النفس فى سبيل الدفاع عن مدينتهم ، وخطب الأمبراطور البيزنطى فى عظماء من الأغريق واللاتين ، وكانوا كلهم قد وطنوا النفس على الموت — حاول الأمبراطور تقوية نفوسهم وتعزيتهم وبث روح التضحية فى سبيل مدينتهم المسيحية المعذبة ، فطلب منهم أن يستعدوا من الآن للموت وقال لهم : « إن الساعة قد أزفت وأن الأعداء الأتراك القساة مصممون على ابتلاعها » وطلب منهم التيقظ ومدافعة

الأعداء بكل ما أوتوا من قوة وصبر ، وبين لهم أنهم سيبذلون أرواحهم فى سبيل الدفاع عن مدينتهم المحبوبة ، ماسكة المدن « للدنيا وللدين وللأمبراطور ولأولادهم ونسائهم ، وإذا منحنا الله الرحمة والقوة سيولى عدونا الأدبار أمام سيوفنا ، وإذا كان الله سيعاقبنا بخطايانا بنصر هؤلاء الأعداء ، سيفقد المسيحيون حريتهم وكل عزيز لديهم « إن المسيحيين ، كما خطب الامبراطور ، لهم الله ، بينما المسلمين قوتهم ومدفعيتهم وفرسانهم ومشاتهم » وخاطب البنادقة الموجودين ومدح شجاعتهم وعدد صفاتهم النبيلة ، وطلب بذل كل شىء حتى النفس فى سبيل الدفاع عن القسطنطينية مدينة المسيحية . وواجه رجال جنوه بنفس الكلام .

وقال لمواطنيه « لا تفقدوا شجاعتكم . إن للأتراك البرابرة عددهم وسيحاولون بهجومهم العام القضاء عليكم ، ولكنكم أنتم القليلو العدد عندكم قوة أسواركم ، ومعاونة حلفائكم الشجعان ، وعون الله القادر على كل شىء ، لقد تدربتم على النضال والصراع ... واظهرتم عظيم إخلاصكم لوطنكم » عند ذلك لم يفكر هؤلاء الجنود الأسود لا فى أطفالهم

ولا نسائهم ولا مصالحهم فى ذلك العالم وإنما جعلوا هدفهم الوحيد الموت فى سبيل القسطنطينية .

واجتمع العدد الكثير من سكان المدينة ومعهم الامبراطور والقساوسة والقواد تحت قباب كنيسة سانت صوفيا يدعون ويبتهلون وكان هذا آخر حفل مسيحى فى هذه الكنيسة العظيمة ، نسى هؤلاء كلهم أحزانهم أمام الموت المحقق القريب ، ومزجوا صلاتهم بالحماس العظيم ، ثم عاد الكل إلى مواضعهم على الأسوار وإلى حماية الأبواب .

وفى أثناء الظلام الدامس اقترب الجنود الأتراك من الأسوار ، وقرب بزوغ آخر فجر رآه الامبراطور ، وتقدم الأسطول العثمانى ، واحتل بالقوة المواضع التى خصصت له . وهجمت الجيوش هجوماً عنيفاً من كل جانب فى نقط عديدة ، ولكن الهجوم الرئيسى كان فى ناحية وادى ليكوس . كبر العثمانيون أثناء هجومهم ، وصدحت موسيقاهم فملأت الجو وعمت الضوضاء بين الهجوم والدفاع ودقت نواقيس الكنائس

بدأ الباشى بذق بالهجوم اولا ، وكان بينهم عدد كبير من المسيحيين الكاثوليك من الألمان والهنغاريين والاغريق واللاتين . وكانت غاية الأتراك من بعث هذه الفرق فى الطليعة استنزاف دماء الأعداء وإنهاكهم واستهلاك ذخائرهم الحربية .

هاجم الباشى بزق فى الظلام ، وحاولوا تساق الأسوار فى جبهة طويلة وكانت أسلحتهم مختلفة كاختلاف أجناسهم ولغاتهم وأشكالهم . وحاولوا نشر الفوضى بين صفوف المدافعين ، واستمر هجومهم ساعة أو ساعتين وهلك منهم عدد كثير بالرغم من قوتهم وجرأتهم ، ولكنهم أنهكوا المدافعين الذين لم يذوقوا طعم الراحة لمدة طويلة .

ثم هاجمت جنود الأناضول عند باب القديس رومانوس ، وكان هذا بدء الهجوم الحقيقى ، وكان هذا عند بزوغ الفجر ، فأحدثوا بالدفاع عطباً جسيما ، واخترقوا الخنادق وهاجموا السور الخارجى واشتبكوا برجال الدفاع ، هاجم الأتراك فى كتل بشرية عظيمة منظمة من جنود وهبوا حياتهم للحرب ودربوا للحرب ، ولكن الأتراك لم يستطيعوا دخولها من النواحى الأخرى .

ولكنهم أحدثوا فى الدفاع ثغرات ، كما أحدثت مدفعيتهم فى القتال ثغرات ، ولاحظ السلطان أن ما يبتغيه من إحداث الفوضى بين صفوف المدافعين قد حدث ، عند ذلك دفع بجنوده الإنكشارية ، وكانوا لم يشتركوا فى القتال بعد ، فتقدموا فى وادى ليكوس كالأسود الضارية لا كرجال ، ليقابلوا رجالا قد أنهكهم التعب والجوع وأثخنتهم الجراح ، تقدموا بصياحهم الداوى ، وتكبيراتهم القوية ، وقربوا من

الأسوار الداخلية وقتلوا من وجدوهم من المدافعين وداس بعضهم بعضاً وصل بعض الانكشارية إلى داخل المدينة وارتقى الأسوار وأزال علم الأمبراطور وعلم البندقية ، ورفع علم الأتراك .

وفى هذه الأثناء جرح جوستنبانى جرحاً مميتاً فحمل وهو فى النزع ، وتدفق الأتراك إلى داخل المدينة . وأما الأمبراطور البيزنطى فأنه حمى أنفه ومات كريما لم تذم خلائقه . ولو شاء لعاش ملوما ذليلا مهيناً . وقتل الأمبراطور البيزنطى وسنه تسعة وأربعون عاما ، فكان آخر الأباطرة البيزنطيين ، وأما سراة المدينة فمنهم من غودروا صرعى تعاورهم الرياح ، ومنهم من هرب ، ومنهم من مات كمدا ، ومنهم من عاش ذليلا بحسرة نفس لا تنام همومها . وأما المدينة فاستبيحت حرماتها وكل شئ فيها للفاتحين لقد قتل أربعون ألف مسيحى فى الحصار والهجوم ، وأخذ خمسون ألفاً ، وسلم عشرة آلاف ، وقتل عدد كبير من الأرستقراطية الاغريقية ، وأخذ أبناؤهم ليتعلموا اللغة التركية والدين الاسلامى وضم النساء إلى حريم السلطان وحريم تابعيه .

ولقد عم الفزع المدينة حين دخلها الاتراك ، فحاول عدد كبير من سكانها بمختلف أعمارهم الهرب إلى الميناء ، والتجأ جم غفير إلى سانت صوفيا وغيرها من الكنائس معتقدين أنهم وجدوا الامان ، وأن

الآلهة ستحميهم من عدوان الترك ، وأن الملائكة ستنزل من السماء وتجعل العدو ترابا ، واغلقوا الابواب وتوسلوا إلى الله ، ولكن الاتراك حطموا الابواب واستولوا على كل شئ ، واستمر القتل اليوم الأول ، واستبيحت المدينة ثلاثة أيام .

تمكن السلطان من الانتصار لقوته وعزيمته وحماس جنوده وتفوق مدفعيته ، فوقعت المدينة تحت أقدامه .

وفى الظهر دخل السلطان محمد الثانى الفاتح المدينة من باب القديس رومانوس يمتطى صهوة جواده فى موكب حافل يتبعه وزراؤه وقواده وجنوده ، وسار فى الشارع المؤدى إلى كنيسة سانت صوفيا ، وترجل أمام الباب وانحنى ووضع حفنة من التراب على رأسه خضوعا لله وشكراً ودخل الكنيسة فبهره جمالها وبهاؤها ، ودخل إلى المذبح حيث قابله رجال الكنيسة وكانوا مختبئين فأحسن استقبالهم وأكد حمايته لهم ، وطلب من المسيحيين الفزعين الموجودين فى الكنيسة الذهاب إلى مساكنهم آمنين .

ثم طلب من أحد المؤذنين أن يؤذن للصلاة ، فصعد المنبر وأذن للصلاة لأول مرة فى هذه الكنيسة العظيمة ، فأصبحت أياصوفيا مسجداً جامعاً من أعظم مساجد الاسلام .

ثم طاف السلطان بالمدينة وشاهد آيات جمالها وعظمتها ، ومر بالقصر الأمبراطورى فهاله مغادرة أصحابه له وزوال العز عنه فتمثل بأبيات للفردوسى فى هذا المعنى . وفى القسطنطينية أعلن السلطان محمد الثانى الفاتح زوال الدنيا القديمة ومجىء العالم الحديث .

وبعث إلى أمراء المسلمين وسلاطينهم ينبئهم بذلك الفتح العظيم فيقول ابن إياس صاحب بدائع الزهور أنه أرسل إلى مصر بهذا الفتح « فلما بلغ ذلك ، دقت البشائر بالقلعة ، ونودى فى القاهرة بالزينة ، ثم إن السلطان عين برسباى أمير خور ثانى رسولا إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح » .

ويحاول كثير من المؤرخين الأفرنج المبالغة فى وصف أعمال السلب والنهب والقتل التى قام بها الأتراك العثمانيون فى المدينة الخالدة، ونسبو ذلك إلى قسوة فى المسلمين ووحشية فى الأتراك ، ونسوا أن هذا روح العصر كله وأن هذا العصر عصر الحروب الصليبية وعلى أى حال لم يرتكب الأتراك العثمانيون فى هذه المدينة مارتكبه اللاتين الصليبيون حين استولوا عليها فى سنة ١٢٠٤ ، وقد كانت دائما محط أطماعهم ، وهذا هو وصف البابا أنسنت الثالث للبلوى التى حلت بالمدينة فى هذه السنة فيقول « إن أتباع المسيح وناصرى دينه الذين كان يجب أن

يستاوا سيوفهم ضد عدو المسيحية الأكبر ، قد سفكو الدم المسيحى الحرام وغرقوا فى بحاره ، هؤلاء لم يحترموا الدين ولا السن ولا الجنس ، فارتكبوا الزنا فى وضح النهار ... لقد سامت الراهبات والعذارى والأمهات الطاهرات لوحشية الجنود ... ولم يكتف هؤلاء بسلب ذخائر الامبراطور ولا نهب متاع الأفراد ، بل لقد وضعوا أيديهم على أرض الكنائس وثروتها ... ، وانتهكوا حرمات الكنائس وسلبوا أيقوناتها وصلبانها وآثارها ومخلفات القديسين » وأضاف الاستاذ شارل ديل لقد دخل الجنود السكارى كنيسة سانت صوفيا ، وأتلفوا الكتب المقدسة ، وداسوا بأقدامهم صور الشهداء ... ، وجلست عاهره على كرسى البطريرك وارتفع صوتها بالغناء ... ، لقد قضى على آيات الفن فى المدينة ، وأذيبت التماثيل لتسك نقودا ... ، ولقد اعترف أحد الرهبان الذين شاهدوا هذا الحادث الأليم فقال : إن أتباع محمد ما كانوا يعاملون المدينة مثلما عاملها جنود المسيح ، ثم نظمت الحكومة الجديدة اللاتينية أعمال السلب والنهب وقسمت الامبراطورية بين اللاتين وفرضت الكثلكة بالقوة على اتباع المذهب الارثوذكسى ...

القسطنطينية
البوسفور
بحر مرمرة
حصار القسطنطينية
أيا صوفيا
غلطة
السلسلة
القرن الذهبي

عوامل النصر

ماهى الاسباب التى جعلت من العثمانيين فى عهد محمد الفاتح قوة متفوقة من الطراز الاول إن لم تكن أعظم قوة فى القرن الخامس عشر الميلادى .

لقد تحدثنا عن شخصية السلطان محمد الثانى وعبقريته وقوته الدافعة وهناك عوامل مهمة ساعدت هذه العبقرية على الوصول إلى مآربها منها أن الدولة العثمانية دولة نشأت فى حوض البحر الابيض المتوسط فى ملتقى الطرق العالمية فتأثرت بحضارة الشرق والغرب معاً ، فمن الوجهة التاريخية تعتبر آسيا الصغرى التى أصبحت فيما بعد مركزاً للاتراك العثمانيين ، تعتبر جزءاً من الغرب منذ ذلك الوقت الذى خاض فيه الاسكندر موقعه إسوس ضد الفرس إلى الوقت الذى قامت فيه موقعة منذ كرت بين السلطان ألب ارسلان السلجوقى والدولة البيزنطية وانتهت بانتصار السلاجقة الحاسم . فليست الدولة العثمانية التى نشأت وترعرعت فى الاناضول دولة شرقية فحسب ، ثم إن ممتلكاتها نمت فى اوربا وآسيا فى وقت واحد ، كما ان سكانها لم يكونوا ينتمون إلى العناصر الشرقية وحدها ، بل كان عدد كبير من الاتراك العثمانيين

أوروبيين بلقانيين صقالية وأغريق . وحتى سكان آسيا الصغرى نفسها لا يرجعون كلهم إلى أصل تركى نقى ففيها العنصر المسيحى الاوربى الاصلى لا يستطاع إهماله ، فيخطئ من يظن أن الدولة العثمانية فى عهد الفاتح أو قبله بقليل كانت دولة شرقية بحتة ، حضارتها شرقية خالصة .

ومن ناحية ثانية الدولة العثمانية دولة مسلمة حنيفة حديثة العهد بالاسلام شديدة التمسك به فهى كبيرة الحماس له ، سباقة إلى الجهاد فى سبيل نشره ، فكان الدين الاسلامى مفخرتها وأداة وحدتها ، والجهاد فى سبيل الله وسنة رسوله من الدوافع التى تحفزها للحياة وللبقاء والانتصار

جعل الاتراك العثمانيون فى باكورة حياتهم الجهاد غرضاً من أسمى الاغراض التى ترمى إليها دولتهم ، وتوسيع رقعة الاسلام من أهم أهدافهم ، وزيادة عدد الذين ينطقون بالشهادتين من أعظم عناياتهم فهم كالعرب فى بدء حياتهم الاسلامية كل تركى ككل عربى محارب بطبيعته ، لا قيمة للرجل إلا بسلاحه ، ولا مركز له إلا بسابقته وجهاده وانتصاره .

و بعد ذلك فالاتراك لا يزالون فى شبابهم ، ولا يزالون يملكون القوة الكافية ؛ ولديهم حيوية لم ينضب بعد معينها ولم تفارقهم طوال

تاريخهم حتى فى أشد أوقات محنتهم ، فهم شعب جديد لايزال يتمتع ببساطته الأولى لم تفسده المدنية ، ولم تفتنه الحضارات المضمحلة التى كانت منتشرة فى كل البلاد التى هاجر إليها والتى فتحها . ولكنه استفاد من كل هذه الحضارات أحسن ما فيها . فلقد ورث عن التتار صفات السيطرة والميل للفتح والقهر ، وتشرب الميول والأفكار التى تساعد على القوة والميل للتجمع حول زعيم لغرض الفتح والانتصار الحربى ، وكانت عنده المقدرة على الحكم والأدارة ، واستفاد من الحضارة العربية نظاما دينيا واجتماعيا وقانونيا إسلاميا لازال محتفظا بحيويته ونقائه وصلاحيته للبقاء ، وأخذ عن الاغريق والبلقانيين بعض نظمهم وتقاليدهم . لقد اكتملت لدى الأتراك العثمانيين كل الصفات القوية التى أصبحت تنقص معظم الشعوب المعاصرة لهم .

أما من حيث نظام الحكم فلقد بلغ درجة كبيرة من الاتقان والدقة فى عصر الفاتح ، هذا النظام يشبه إلى حد النظام المملوكى فى مصر وإن كان يختلف عنه من بعض الوجوه . نظام وضع لاختيار من يرشحون لتولى أمور الدولة ، نظام يعنى أولا بانتقائهم ثم بتدريبهم وتثقيفهم ، ثم اختيار ما تؤهله صفاته العقلية والجسمية ومواهبه للوظائف التى تتناسب وهذه المؤهلات .

يشمل نظام الحكم الهيئة التنفيذية ، وهذه على رأسها السلطان وتتكون من البلاط والأدارة والجيش القائم من فرسان ومشاة .

والسلطان هو رأس نظام الحكم كله ومركزه وقوته الدافعة وهو أداة توحيده وتسييره وهو صاحب التصرف المطلق فى الأموال والأنفس ، وهو الذى يصدر الأوامر ويمنح الرتب ويفرق النعم والخيرات ؛ لا توجد سلطة أو قانون يحد من سلطته ولا رقيب عليه إلا الله والشرع فأوامره تأتى فى الأهمية بعد كتاب الله وسنة رسوله ، ومجموعة خطوطه الشريفة ومراسيمه وأوامره هى قوانين الدولة بعد القانون الاسلامى .

ولذا فالسلطان بالرغم من اتساع سلطته لا يجرؤ على مخالفة الشرع الشريف فهو يستفتى فى أمور الدولة المهمة وفى الأمور التى لها صفة دينية ، ومن هنا نشأت وظيفة المفتى وفى الدولة العثمانية ، وأصبحت هذه الوظيفة مهمة جداً بالرغم من أن ذلك الموظف الكبير كان كبقية الموظفين الآخرين قابلا للعزل ، إلا أنه لم يكن هناك مفر للسلطان من أن يستشيره حتى يكون مطمئنا أمام نفسه وأمام الرأى العام الأسلامى .

فكان السلطان إذن حريصا على رضاء الله وعلى استرضاء الرأى العام .

وكان الأتراك محبين لسلاطينهم مخلصين لهم متعلقين بهم إلى درجة التقديس أحيانا فلم يفكر الأتراك لمدة سبعة قرون فى تحويل السلطنة عن آل عثمان إلى عائلة أخرى .

وكان السلطان يعين فى إدارة الدولة الوزراء وهم على عهد السلطان الفاتح أربعة رئيسهم الصدر الأعظم ويليهم رجال الشرع وهم يعاونون السلطان فى الأمور الدينية والقضاء .

وبجانب السلطان مجلس الدولة وهو الديوان مكون من الوزراء والقضاة وموظفين المالية الكبار ، ورياسة هذا المجلس للصدر الأعظم فى حالة غياب السلطان .

أما من حيث الادارة فالسلطنة مقسمة إلى ولايات على كل منها بك .

وأذن للهيئة التنفيذية أن ينتمى أعضاؤها كلهم باستثناء السلطان إلى أصل غير تركى وغير إسلامى ، إلى أصل مسيحى صرف . تكونت الهيئة التنفيذية من أولاد وشبان نشأوا فى أحضان المسيحية وتربوا فى أوساط مسيحية بحتة من آباء مسيحيين خلص ، أخذ هؤلاء الأولاد والشبان من ديارهم الأصلية كرقيق للسلطان ، ودخلوا فى خدمته ليعيشوا فى ظله وكنفه وتحت رعايته .

لقد أخذ الأتراك العثمانيون أولاد الفلاحين من وراء المحراث وأبناء رعاة الغنم والخنازير ليجعلوا منهم جنودا وسادة ، قوادا وحكاما ووزراء، أخذوا أولاد المسيحيين ليجعلوا منهم قوادا للأسلام وزعماء ، همهم الوحيد وغاية حياتهم نصرة الهلال والدين الأسلامى وخدمة أكبر دولة إسلامية والقضاء على أعداء الاسلام .

فالنظام العثمانى كان يفصل بين هؤلاء الأبناء و بين آبائهم و بيئتهم الأصلية إلى الأبد ، فكم من قلب جريح و نفس مكلومة وحزن طويل حين يغادر هؤلاء الشبان أوطانهم وأباءهم وأمهاتهم ، سيذهب هؤلاء الابناء إلى مكان غير معروف حيث يربون على غير ما عهد الأباء والأجداد .

ومع ذلك فلم يكن أخذ هؤلاء الأولاد شرا لايمتزج به الخير ، فلقد كانت سلوى الآباء والأمهات أن هؤلاء الابناء سيفارقون فراقا نهائيا حياة الفقر والضنك . والبؤس التى عاشوها هم ، سيكون لهم مستقبل كبير ومجد عريض وعيش رخى ، فلقد كان الكثير من هؤلاء الابناء إذا وصل إلى مركز كبير يذكر أهله بالخير ، و يعاملهم فى الدنيا معروفا لا يبتغى منهم جزاءا ولا شكورا .

كان العثمانيون يختارون هؤلاء الأولاد والشبان من سن الحادية عشرة إلى سن العشرين ولم يكونوا يختارونهم حسب اسمائهم أوجنسهم أو عائلاتهم أو أحسابهم ، وإنما نظروا إلى وجوههم وقوة أجسامهم وبراعة عقولهم ، وقالوا لهم ستكونون جنودا لهذه الدولة التى اختارتكم ، وإذا أسلمتم واثبتم كفاية جسمية أو عقلية ستكونون قوادا لها وزعماء ، وإذا أقمتم الدليل على كفاية عقلية ورغبة فى الثقافة صرتم علماءها وحكامها ووزراءها . ثم يأخذون هؤلاء الأولاد والشبان ، ويعملون على تربيتهم فى طاعة قانون وتدرب واحد وفى ظل دين واحد هو الدين الاسلامى الحنيف .

كان هؤلاء الأولاد والشبان يؤخذون كذلك من الأسرى ، فكان السلطان ينتقى خيرة الأسرى وأولاد الارستقراطية المسيحية ليضمهم إلى حكومته وجيوشه ، أو كانوا يشترون أو يفرضون على أهل الذمة كضريبة ، واتبع نظام خاص فى جمع أولاد الجزية هؤلاء ، فعين موظفون لذلك الغرض يذهبون كل أربع سنوات إلى القرى وعين لكل منهم العدد الذى يجمع .

كان هؤلاء الأولاد والشبان يجمعون عادة من الجبال ومن الأماكن الفقيرة والقرى الصغيرة فى سن لا تربطهم بالأهل فيها روابط كثيرة متينة ، فى سن فيها الشك فى الدين ، وفيها انتقاد التقاليد ، ويغلب فيها

حب المغامرة والانتقال والسفر وتغيير نمط الحياة ، و يسمو فيها الخيال إلى العظمة والمجد ، فى سن أصلح للأخذ من السن التى قبلها سن الطفولة والسن التى تليها سن الاستقرار وتكوين العائلة ، فكانوا يؤخذون فى سن المراهقة .

يؤخذ هؤلاء الأولاد ليدربوا أحسن تدريب عسكرى عرفه العالم فى ذلك الوقت ، ولتفتح أمامهم سبل الحياة ، ويبتسم لهم المستقبل الزاهر .

وهؤلاء الذين اختيروا يصيرون عبيداً للسلطان رقيقاً له من يوم ماجمعوا ، يصبحون مماليك السلطان بكل معانى الكلمة ، هم مماليكه مدى الحياة ومهما ارتفعوا إلى مراكز عظيمة فهم يظلون دائما رهن إشارته وتحت تصرفه لا يعتبرون حياتهم ملكا لهم ، فهو الذى اختارهم وهو الذى رباهم ، وهو الذى علمهم ، وهو الذى رقاهم . وهم مخلصون له الطاعة مدينون له بكل شىء .

خلق هذا النظام المحكم للدولة العثمانية خداما مخلصين للسلطان يتبعون أوامره و يلتفون حوله و يدافعون عنه ويحاربون فى صفوفه ، ولما كانوا قد تلقوا أحسن تدريب عرفه العالم فى ذلك الوقت كانوا خيرة جنود العالم يخاف سطوتهم العدو ولا يقف أمامهم شىء ، هذا إذا كانت

شخصية سيدهم والمدبر لشئونهم السلطان قوية محبوبة محترمة مهيبة الجانب ، ولقد كان سلاطين الدوله العثمانية إلى عهد الفاتح من أقوى الشخصيات التى عرفها التاريخ فى أى دولة ناشئة .

وهذا النظام فضلا عن أنه ينشىء للحكم أفراداً صالحين فهو يضيف إلى الأتراك والمسلمين عناصر سليمة فتية قوية ، و يقول البعض أنه قد يشوب إخلاص هؤلاء للدين الاسلامى بعض الشوائب . لقد أثبت التاريخ العثمانى أن كثيراً من هؤلاء خدموا الدولة واشتركوا فى إقامة صرحها وفى رفع ذكرها وكانت لهم يد طولى فى بناء مجدها .

وعلى أى حال فأولاد هؤلاء من بعدهم يربون فى بيئة إسلامية صرفة فينشأون مسلمين و ينضمون إلى بقية افراد الشعب التركى إذ لم يكن مسموحا لهم أن يصبحوا كآبائهم أعضاء فى هيئة الحكم .

فليس الرق فى الدولة العثمانية إذن نظاماً شائناً أو عاراً ، ولم يكن نظاماً للمستضعفين ، فالوزير فى الدولة يفخر بأنه عبد السلطان ، وأصحاب القوة والسطوة والنفوذ كان معظمهم إن لم يكن كلهم رقيق السلطان .

وأما الجيش فكان مكونا من عناصر مدربة أحسن تدريب لاتعرف عملا لها سوى الخدمة العسكرية وامور الحرب والاخلاص فى طاعة السلطان ، يمنحها المستقبل الزاهر والثروة والجاه . ونظام الجيش

يقوم على أساسين النظام الاقطاعى فالسلطان يهب الأرض على شرط أن يقوم صاحبها بالخدمة العسكرية فى الوقت الذى يطلبه فيه السلطان وعليه أن يعد الخيل اللازمة له ولاتباعه الذين يتحدد عددهم بمقدار ايراد الأرض ، وهذا النظام يشبه النظام الاقطاعى الأوربى ولكنه أصلح منه من الناحية الحربية ، فهؤلاء المقطعون يخدمون السلطان فى أى وقت يشاء ، ولأى مدة يريدها لا لمدة أربعين يوماً كما هى الحالة فى أوربا .

والأساس الثانى هو أساس الرق ؛ وجنود هذا النظام يختارون كما تختار هيئة الحكم ، ولم يكن أفراد الجيش حين يدخلون خدمة السلطان مجبرين على اعتناق الدين الاسلامى ، ولكن أحيط قبول الدين بكل مظاهر الاكرام ، فلقد مهدت لمن يعتنقون الاسلام السبل للترقى المستمر وأبعدوا عن الوسط المسيحى ، وتربوا فى جو إسلامى بحت ، وبذا انسى هؤلاء تقاليدهم القديمة ، وأترفى ميولهم وعقليتهم الدين الجديد .

ومن أهم عناصر الجيش العثمانى فى عهد السلطان مراد الثانى و الفاتح فرقة الانكشارية ، فأفرادها كلهم من أصل رقيق مسيحى ، وترجع نشأة هذا النظام إلى عهد السلطان أرخان فلقد اقترح وذيره قره خليل خلق جيش جديد مكون من فتية مسيحيين و برر ذلك العمل كما تقول القصة

بأن سكان البلاد المفتوحة ملك للقاهرين هم وأزواجهم وأطفالهم وما ملكت أيديهم ، وهو عمل صالح بعد ذلك ، فهو يجعل من أبناء النصارى مسلمين ولقد دعا لهم الشيخ بكناش ببياض الوجود وقوة السواعد وحد السيوف وإصابة الهام وأن يكون النصر حليفتهم فى الحرب وسماهم بالعسكر الجديد .

هذا العسكر الجديد تدرب على أمور الحرب ، فأصبح أفراده مقاتلين من الطراز الأول وخصوما عنيدين يقاتلون فى خط واحد كأنهم بنيان مرصوص . هذا الفريق تدرب أفراده جسميا أكثر مما تدربوا عقليا ، وقوتهم هذه جعلتهم مرهوبى الجانب يخشى بأسهم إذا غضبوا ، وكانوا عادة ينظمون فى أود أو أرط ولكل أرطة ضباطها وعلى رأس الضباط جميعا الأغا .

هؤلاء الجنود كانوا حرس السلطان الخاص يتبعه منهم فى كل مرتحل مائة وخمسون ، ومن يكبر فى السن من هؤلاء الجنود أو يصيبه الضعف أو الوهن يرسل إلى حراسة الحصون .

فنظام الحكم ونظام الجيش كما رأينا نظام تعليمى ، هو مدرسة للحياة بالحياة ، فيها التدريب ، وفيها التثقيف ، وفيها النظام الدقيق وفيها مستويات معينة يرقى فيها المتعلم .

وقام هذا النظام على مبدأ الجدارة والاستحقاق ، فالذى يرقى هو الذى يملك المواهب والمؤهلات الخاصة ويحسن استغلالها ، ويظهر كفاية ممتازة . وقام ذلك النظام على أساس مبدأ المكافأة فهو يجازى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، وهو يهتم بكل مناحى التربية من عقلية وجسمية وروحية فيه تدريب للجسم وصقل للعقل وغرس لمبادىء دينية واجتماعية جديدة .

فبرجرام التعليم شامل ، وكما اهتم بالمتعلم اهتم بالمعلم ، فعنى باختيار المعلمين من مدرسين وضباط وعلماء ، ولا مكان فى ذلك النظام للضعيف أو الكسول أو البليد أو الخائن لأنه فى أول فرصة تظهر فيها سمة الخيانة أو الغدر عقابها الوحيد الرادع هو الاستئصال ، هو ضرب الرقاب .

وبجانب الانكشارية الجنود السباهية أو الفرسان ، وبجانبها أنواع أخرى من الجنود كالباشى بزق والأكنجى والغرب .

وكان يسود الجيش العثمانى النظام والهدوء ، ففى المعسكرات حين يأمر السلطان لا يتكلم الجنود إلا همساً ، ويمتاز ذلك الجيش بالطاعة والخضوع والصبر على المكاره وتحمل الجوع والظمأ وقطع المسافات الطوال ، كما يمتاز بخفة وسرعة حركاته ، فالحصان التركى كالحصان العربى خفيف وسريع ، بينما الجيوش الأوروبية فى ذلك الوقت تمتاز

يبطء حركاتها نظراً لثقل الملابس الحديدية التى يلبسها الدارعون ولثقل الفرس الأوروبى .

وشهد بتفوق الجيش العثمانى معاصرو الأتراك من أوربيين ومسيحيين فالحكومة العثمانية كانت فى الواقع كلها جيشاً قبل كل شىء فالأتراك جنس ولد للحرب ، وتوحد للحرب ، ونظم للحرب ، فالحرب كانت أهم وظيفة تقوم بها الحكومة .

فهى منظمة للدفاع عن نفسها داخل البلاد وخارجها. ولقد فاق اهتمامهم بالحرب أى دولة أخرى معاصرة لهم . وكان اهتمامهم بالمدفعية بالغاً ، وكذلك باقتباس كل المخترعات الحديثة فى الأسلحة وأدوات الحرب، وعنوا بكل الأمور المتصلة بالحرب من إعداد فرق خاصة بمسائل تموين الجنود وإعداد الطرق التى تمر فيها الجيوش ، وبنظام المعسكر ووسائل النقل والترفيه عن الجنود .

ويصف المعاصرون كثرة الأغذية والعتاد الحربى فى معسكرات الجنود وكذا دواب الحمل والنقل ، ولم تعن دولة لا فى أوربا ولا فى بقية أجزاء العالم فى ذلك الوقت مثلما عنى العثمانيون من ناحية إعداد الجنود وتدريبهم ونظامهم وغذاءهم وملبسهم ومكافأتهم .

لم يوجد فى نظام الحكم هذا شىء يعرف بالوراثة ، فكل الحقوق

والامتيازات التى ينالها الأفراد شخصية لا تورث من بعدهم ، فالنظام العثمانى الحاكم لا يعرف الوراثة ، ولا يعترف بغير الكفاية والجدارة الشخصية ، ومن هنا كان الباب مفتوحا أمام الكفايات ، ووجدت الهمم مايحفزها و يكافئها ، ولم تتركز القوه أو السلطة فى يد عائلة واحدة أو عائلات قليلة كما هى الحال فى البلاد الأوربية فلم تكن هناك ارستقراطية ثابتة متوارثة ، كما هى الحال عند المسيحية ، وإنما الارستقراطية الموجودة هى ارستقراطية للكفاية والجدارة والعلم . فالدولة فى عهدها الأول قوة يسيطر فيها السلاطين على كل شيء ورعيتهم كلها مستوى واحد هى رعيةُ السلطان تتساوى أمامه ، و يرعى أفرادها بعنايته ، وأكد هذه المساواة الدين الاسلامى ، فهو يقول . بتساوى الناس جميعاً فلم يجد الأتراك غضاضة إذا رفع السلطان أضعفهم وأفقرهم إلى أعلى مراتب الدوله فهناك شعور عام بالمساواة بين رعايا السلطان .

وعناية الحكومة كما ذكرنا كانت موجهة إلى الدفاع عن نفسها داخل البلاد وخارجها ثم توسيع رقعة البلاد والعمل على زيادة عدد سكانها ، وذلك عن طريق الحرب فى دار الحرب ، وهنا تظهر قوة الدافع الدينى ، فقوة الدولة هى قوة الاسلام ، وفتوحات الدولة هى فتوحات الاسلام ، وهنا

تظهر أيضا قيمة الحرب فى ضمان رفاهية السلطان وتابعيه من هيئة الحكومة بما يحرز فى الحرب من غنائم وأسلاب .

ووظيفة هذه الحكومة بعد الاضطلاع بأمور الحرب وفنونها العمل على إنماء النظم التى تسير عليها ، وتنظيم الدولة والحصول على المواد اللازمة لقيام الحكومة و بقائها وفض المنازعات التى تنشأ بين رعايا الدولة والتى لا يستطيع نظام الملات (الذى سنتكلم عنه) الفصل فيها.

ومن أسباب قوة الدولة حياة البساطة التى كان يعيشها السلاطين الأول فلم يهتموا كثيراً بمظاهر الأبهة والمدنية كما اهتم قبلهم الفرس أو البيزنطيون أو كما اهتم بها السلاطين المتأخرون ، فكانوا حريصين على اتباع أوامر الدين ونواهيه ، وكانوا يذهبون إلى الصلاة فرادى فى ملابس عاديه لا يميزهم فى المساجد عن غيرهم من الافراد شىء إلى حد أن الاجانب ما كانوا يستطيعون التمييز بينهم و بين سائر الناس هذه البساطة كانت من مظاهر القوة إلى أن فتح السلطان محمد الثانى القسطنطينية ، فلم يعد سلطان الاتراك سلطانا للأتراك فحسب ، بل أصبح بجانب ذلك خليفة للأمبراطور البيزنطى فبدأت تدخل الحكومة العثمانية مظاهر الأبهة والعظمة .

موقف أوربا إزاء سقوط القسطنطينية

لقد استولى الذعر على أوربا حين علمت بسقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين ، هذه المدينة التى أسسها قسطنطين والتى قامت بحماية المسيحية .

قد يفترض بعض المؤرخين الأوربيين أنه لو اتفقت أوربا المسيحية فيما بينها وبعثت بالنجدة فى الموقف المناسب لربما تأخر سقوط القسطنطينيه بل ربما لم يستطع الأتراك الاستيلاء عليها كلية ولا تهديد وسط أوربا وقينا

وهذا افتراض لا يقوم على أساس صحيح فلقد كان للأتراك كما رأينا كل وسائل الانتصار فى ذلك الوقت : القيادة الممتازة والقوة الساحقة والعزم الصادق والمركز الأستراتيجى فكانت ممتلكاتهم تحيط بالعاصمة الأغريقية من كل مكان .

ثم إن الأتراك استطاعوا أن يقضوا قضاء عزيزا مقتدر على كل الدول القريبة من بيزنطة والتى ربما وقفت حجر عثرة فى سبيلهم ، لقد قضوا تماماً على قوة الصرب التى كانت تبشر بمستقبل كبير فى البلقان وقضوا على قوة البلغار ، وسيطروا على البلقان سيطرة لا ينافسهم فيها أحد ولم تستطع المجر القيام بأى خطة هجومية بعد موقعتى ورنه وقوصوة هاتين الموقعتين اللتين انهزمت فيهما المجر انهزاما ساحقاً .

وبعد ذلك ما كانت دول أوربا تستطيع أن توحد صفوفها ، وما

كانت تستطيع أيضاً أن تبعث بنجدة قوية فى الوقت المناسب لبعد المسافة وسوء وسائل المواصلات فى ذلك الوقت ، لا سيما وأنه قد ظهر لها أن ذلك الاتفاق وتوحيد الصفوف لو تم ما هو بمستطيع قهر الأتراك أو التغلب عليهم ، فقد سبق أن دمر الأتراك فوق هذه الاتفاقات تدميراً ذريعاً فى أكثر من موقف ، وما ذكريات نيقوبوليس الحزينة ببعيدة عن أذهان الأوربيين ، لقد دافع الأتراك عن مركزهم بنجاح أذهل ملوك أوربا وشعوبها ، وكانت نتيجة هذه الموقعة محزنة للمسيحيين بدرجة لم يعد معها من السهل استثارة الأوربيين من جديد لحرب مع المسيحيين .

ثم إن مثل هذه الحملات كانت تستلزم جمع المال الوفير للاستعداد للحرب ولتحرير أسراها بعد الحرب ، ولم يعد الأوربيون يطمئنون بسهولة إلى إنفاق أموالهم فى حملات غير مضمونة النتائج ولا مأمونة العواقب .

كانت موقعة نيقوبوليس كما يقول مؤرخها الدكتور عزيز سوريال عطيه انتهاء الحملات الصليبية كحركات مسيحية منظمة ضد الأتراك العثمانيين ، ولذا تعتبر هذه الموقعة فاصلة فى مصير الدولة البيزنطية وفى مصير عاصمتها مدينة القسطنطينية ،

ولكنه بالرغم من ذلك لم تكن البابوية زعيمة المسيحية لتنصرف

ألى البأس أو تخلد إلى السكون فهى ما كانت تسمح بقضاء المسلمين على الامبراطورية البيزنطية مهما كانت كارهة لأرثوذكسيتها ، فهى تخشى اعتداء العثمانيين على البلاد المجاورة لهم والتى تخضع للنفوذ البابوى الدينى فتحوت الفكرة الصليبية إذن من محاولة انتزاع الأراضى المقدسة من المسلمين إلى صراع دفاعى الغرض منه إنقاذ أوربا الكاثوليكية من الأتراك . لقد كان القيام بالحروب الصليبية سياسة البابوية الخارجية .

ولذا حاول البابا بيوس الثانى بكل ما أوتى من مقدرة خطابية ومهارة سياسية تأييد الفكرة الصليبية الجديدة وحاول توحيد أوربا ضد الأتراك وتركزت مجهوداته فى ناحيتين : حاول أولا أن يقنع الأتراك باعتناق الدين المسيحى ، ولم يقم بأرسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض و إنما اقتصر على إرسال خطاب إلى السلطان الفاتح يطلب منه أن يعضد المسيحية كما عضدها من قبله قسطنطين وكلوفيس وأن يكفر عن خطاياه باعتناق المسيحية مخلصاً . ولم يكن معقولا نجاح مثل هذه المحاوله .

ولما فشل البابا فى خطته هذه لجأ إلى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة وذلك عن طريق إقناع الدول المسيحية بتكوين حملة صليبية جديدة ضد الأتراك حملة برية وبحرية تبين للأتراك تماسك أوروبا وتضافرها على الأخذ بناصر المسيحية .

ولكن الدول الأوربية والجمهوريات الايطالية ما كانت لتقوم بتنفيذ مثل هذا المشروع بالرغم من الخطر الذى يهدد معظمها وبالرغم من أن فكرة القيام بحرب صليبية لا زالت مثلا من المثل العليا الأوربية. لقد وعدت بعض الدول فعلا بالاستعداد لتحقيق فكرة البابا ولكن لما جاء وقت الجد اعتذرت دول أوروبا بمتاعبها الداخلية ومشاغلها. لقد أنهكت حرب المائة سنة انجلترا وفرنسا وفوق ذلك فانجلترا منهمكة فى مشاغلها الدستورية وحروبها الأهليه ، ولم تكن حالة فرنسا الداخلية تسمح لها باشعال نار حرب مع الأتراك ، فلقد أضعفتها المنازعات الداخلية . وأما أسبانيا فهى لا تزال تناضل فى سبيل وحدتها القومية ضد المسلمين . وعلى أى حال كانت الفكرة العالمية المسيحية آخذة فى الزوال ؟ فكرة أمبراطورية مسيحية عامة ، وأخذت تحل محلها بالتدريج فكرة القومية .

وأما الجمهوريات الايطالية فكانت تهتم بتوطيد علاقاتها مع الأتراك أكثر من اهتمامها بالدخول معهم فى حرب صليبية وأخذت صحة البابا فى الاضمحلال وسرعان مامات وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت صاحبها ، وترك المجر والبندقية منفردين مهمة وقف الأتراك والدفاع عن حدود المسيحية .

وكيف تستطيع أوربا إنقاذ القسطنطينية والحرب فيها مستعرة بين شعب وشعب ، بين بابا روما و بابا افينيون، و بين مجمع دينى ومجمع دينى آخر . لقد اتفقت الملكيات الأوربية والجمهوريات الايطالية فى لودى على الاتحاد ضد الأتراك فى سنة ١٤٥٤ ولكن ذلك الاتفاق لم يقف أمام تجارب الزمن فلقد انفصلت البندقية عن الاتحاد وعقدت معاهدة صداقة مع الاتراك وحسن جوار رعاية لمصالحها فى الشرق الأدنى وقامت الحرب على قدم وساق فى شبه جزيرة إيطاليا واهتم الكاثوليك باضطهاد اتباع يوحنا هوس أكثر من اهتمامهم بمحاربة الأتراك المسلمين .

* * *

كان سقوط القسطنطينية يمثل انتهاء حقبة من الدهر ، فلقد قضى على الدولة البيزنطية التى عاشت حول أحد عشر قرنا من الزمان وأزال منافساً خطيرا للدولة الرومانية المقدسة فى الغرب ، وتضى على حضارة بيزنطة المسيحية وعلى المثل والمبادئ التى كانت رمزاً لها .

وتمثل كنيسة أيا صوفيا العظيمة التطور الدينى الذى حدث فلقد أصبحت مسجداً جامعاً للمسلمين ، وحل هلال بيزنطة القديم محل الصليب ، واستطاع الاتراك أن يمدوا سلطانهم بعد ذلك إلى بلغراد

والدانوب وما يسمى حالياً رومانيا ، أصبح إذن غربى آسيا فى قبضة الاتراك وكذا جنوب شرق أوربا فكانت الدولة العثمانية خطراً دائماً على أوربا مهدداً لكيانها وحياتها ، فلقد كانت قوة الأتراك الحربية لا نظير لها ، وما كانت أوربا التى ذهبت وحدتها التستطيع الوقوف أمامهم.

فى القسطنطينية وفى البوسفور والدردنيل وضع الأتراك أقدامهم فى مركز استراتيجى مهم سيجعل تقدم روسيا أو نمو النمسا من ناحية الشرق أمراً مستحيلا لمدة تقرب من الخمسة قرون ، امتلكوا أجزاء من العالم تسيطر على أوروبا وآسيا وأفريقية كما سيطروا على معظم طرق المواصلات البرية والبحرية المهمة بين الشرق والغرب .

وتعتبر أوربا بانتبيت أقدامهم فى ذلك الجزء من العالم كارثة لا تماثلها كارثة ، ففى سنة ١٤٥٣ ولدت المسألة الشرقية التى شغلت أوروبا إلى الوقت الحاضر ولاتزال تشغلها . كيف تستطيع أوربا وقف تقدم الإسلام فى أوربا ؟ ثم لما عاد الاسلام يتراجع من هذه الديار كيف تعمل أوربا على توزيع ممتلكاته ، ما كانت أوربا تحير لهذه الأسئلة جوابا نهائياً .

فتوح الفـــاتح الأخرى

فتح بلاد الأغريق :

لقد استولى السلطان محمد الثانى على القسطنطينية وسنه لاتزيد على ثلاثة وعشرين عاما ، فكان أكبر من المقدونى بسنة واحدة فى الوقت الذى فاز فيه بانتصاره الباهر على الفرس فى موقعة جرانيكوس وكان أصغر من القائد العظيم نابليون بونابرت بثلاث سنوات حين قاد الفرنسين إلى النصر ضد النمسا فى موقعة لودى فى سهل لمبارديا بأيطاليا

على أن السلطان الفاتح لم يهدأ له روع ، ولم يخلد إلى السكينة بعد ذلك الفتح العظيم ، فهو ابن الحرب ، نشأ فى ميادينها ونبغ فيها ، وقضى بقية حياته يستعد لها أو يخوض غمارها . وكانت الظروف السياسية فى البلقان ترغمه على السير فى فتوحاته ، فكان عليه أن ينظف البلقان وشبه الجزيرة اليونانية من بقايا الدولة البيزنطية الغابرة ، ومن المستبدين البيزنطيين ، والمغامرين الأيطاليين . لقد كانت هناك إمارات أو دوقيات مشتتة مبعثرة بعيدة عن بعضها ، لم تحاول قط جمع قواتها

لمواجهة الخطر العثمانى الجارف ، ولم تستفد شيئاً من الدرس القاسى الذى خبرته بيزنطه ومدينة قسطنطين الأكبر .

لقد كان البندقة فى أوائل القرن الخامس عشر يسيطرون على معظم البلوبونيز وأبيروس وعدد كبير من جزر بحر الأرجنيل وجزيرة كريت . وسقطت أجزاء من شبه جزيرة المورة فى يد الفرنسيين . ولكن جمهورية البندقية كانت متمسكة بالأشراف على السواحل ، وتركت السيطرة على جزر بحر الأرجنيل لأفراد منها مغامرين .

وكانت الفوضى فى هذه الأجزاء جميعها منعدمة النظير ، فقامت الحروب والثورات والمنازعات الداخلية التى لا تنقطع بين الكتلان (من الاسبان) وبين الأيطاليين والفرنسيين ، وكان فى آخر الأمر أن أخلى العنصر الفرنسى السبيل أمام العنصر الأيطالى ، كما حل محل الكتلان الأيطاليون عن طريق الفتح أو الشراء أو اقراض المال . وتدخل الأتراك أنفسهم فيما بين هؤلاء الأمراء ينصرون فريقا على فريق ، ثم يأخذون فى آخر الأمر ممتلكات الفريقين إذا وجدوا ذلك أمرا هينا أو إذا ضعف الفريقان أمام قوتهم .

لقد كثرت فى البلقان وشبه الجزيرة اليونانية الهجرة وانتقال السكان من مكان إلى مكان ، وحلت عناصر وجنسيات محل أخرى أو طغت عليها

فظهر الألبانيون والأفلاقيون ، واستقروا فى جاليات قوية فى معظم أجزاء البلقان، وحوصرت المدن وفتحت أو تركت ، وسكنت أو خربت

ولم يكن السلطان محمد الفاتح هو أول من غزا هذه البلاد ، فلقد غزاها من قبله عدد من السلاطين ، غزاها السلطان بايزيد الأول ، ثم السلطان مراد الثانى ، بعث إليها من قواده من استطاع اكتساحها من أقصاها إلى أقصاها ، ولكن العثمانيين لم يثبتوا أقدامهم فيها نهائيا إلا فى عهد الفاتح .

كان من أكبر الأمارات الأغريقية إمارة أثينا ، وكانت فوضى الحكم فيها على أشدها ، فلقد مات دوقها وخلف الحكم لزوجته وابنه ، فأما زوجته فلقد جعلت من عرش الأمارة فراش غرام ، فأحبت أحد الدوقات الآخرين ولم تقبل الزواج منه إلا إذا طاق زوجته الأصلية وأهلكها ، وفعلا تم لها ما أرادت ، وذهب الساخطون على ذلك السلوك إلى السلطان يطلبون منه النجدة والتدخل ، فأرسل لهم دوقا آخر لم يفترحتى قتل الدوقة المولعة بالغرام ، وقامت فوضى لم يرض معها السلطان الفاتح إلا أن يرسل قائده عمر بن طرخان لاحتلال أثينا ونشر الأمن والنظام فى هذه الأرجاء وحماية هؤلاء الطغاة والمستبدين من أنفسهم .

وظهر السلطان محمد الثانى فى أراضى الأغريق كالحكم القوى العادل الذى يقبله الجميع ، ويخضع له الجميع راضين . لقد وصل إلى بلاد الموره فى سنة ١٤٥٨ لكى يعطى الطغاة والمستبدين الأغريق واللاتين درسا قاسيا فى فن السياسة والحكم ، فاستولى على حصونهم ، وقضى على محبى الفوضى قضاء عزيز مقتدر ، وفتحت القساوسة أبواب مدنهم له ، وتلقوه بالترحاب حتى يحظوا بحمايته ، ويطمئنو إلى رعايته . ثم زار مدينة أثينا وها له جمال آثارها القديمة ، فمكث فيها مليا . وفى السنتين اللتين تلتا سنة ١٤٥٨ تمكن من إخضاع شبه جزيرة الأغريق إخضاعا تاما فأصبحت جزءا من الامبراطورية العثمانية إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر

* * *

إخضاع الصرب :

أما مع أمراء البلقان وخاصة الصرب ، فكانت سياسة السلطان محمد الثانى قبل فتح القسطنطينية هى توثيق علاقات الود والصداقة بهم والعمل على كسب رضاهم حتى ينتهى من مهمته العظيمة ، وحينئذ يستطيع إخضاعهم الواحد تلو الآخر . كان يعرف أن الصرب الشمالية